شرح
الأربعين النووية

لفضيلة الشيخ
تركي بن مبارك آل بن علي
رحمه الله

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥ م

شرح
الأربعين النووية

لفضيلة الشيخ
تركي بن مبارك آل بن علي
رحمه الله

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

تنويه:

هذا الكتاب في أصله حلقات صوتية لدورة مسجلة، قمنا بتفريغها بتصرف يسير، كحذف كلمة، أو إعادة صياغة جملة؛ ليسهل فهم المادة المكتوبة.

وقد قمنا بنقل الأحاديث وغالبية الآثار نصًّا من مصادرها الأصلية.

الناشر



الثلاثاء، ١٩ شعبان، ١٤٤٦ هـ - (١٨ فبراير ٢٠٢٥ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذه دورة مختصرة ميسرة –بإذن الله سبحانه وتعالى– في شرح الأربعين النووية، ولا أقول شرحًا بل هي تعليقات يسيرة على هذه الرسالة النافعة الماتعة للإمام النووي –رحمه الله رحمة واسعة–، وبفضل الله سبحانه وتعالى قد من الله سبحانه وتعالى على العبد الفقير بأن يشرح هذه الأربعين النووية مرات ومرات، بين إيجاز واختصار، وبين تطويل وإسهاب.

الأربعون النووية هي اثنان وأربعون حديثا، وسميت بالأربعين لأن العرب تحذف الكسور، فإذا قاربت تسعة وثلاثين تقول أربعون، وكذلك لو كان العدد واحدًا وأربعين أو اثنين وأربعين تقول أربعون وهكذا؛ فلذلك قال النووي –رحمه الله– الأربعون النووية، وهي في الحقيقة اثنان وأربعون حديثا.

الإمام النووي –رحمه الله– ولد في نوى من سوريا، وقيل أن عددًا من الأئمة عرفوا واشتهروا بديارهم وبأوطانهم، فمثلًا الحافظ العراقي إنما اشتهر بنسبته للعراق، والخطيب البغدادي اشتهر بانتسابه لبغداد، والإمام عبد الرزاق الصنعاني انتسب واشتهر إلى صنعاء، وهكذا كثير من الأئمة، بينما الإمام النووي –رحمه الله– مصنف هذه الرسالة اشتهرت بلدته بذكره، لم تعرف نوى إلا من الإمام النووي –رحمه الله–، الإمام النووي –رحمه الله– هو الذي شهر هذه القرية الصغيرة من قرى الشام.

الإمام النووي –رحمه الله– هو أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي، ولد بنوى من الشام، ونشأ على طلب العلم وهو صغير، وكان الأطفال من أقرانه الصغار يأخذون بتلابيبه إلى اللعب وهو يأبى ذلك ويبكي؛ يريد أن يكمل حفظه من القرآن الكريم، وهذه الظاهرة لم تعرف إلا للنزر اليسير من الناس، كما جاء في الحديث الذي في إسناده مقال، أن رسول الله

-صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((عجب ربنا من شاب ليست له صبوة)) أي لم يعرف مرحلة الصبا في حياته، وهي التي تعرف باللعب واللهو ونحو ذلك. كان من أولئك الإمام النووي -رحمه الله-، لم تُعرف له صبوة، كان منذ نعومة أظفاره يحب طلب العلم الشرعي، ويسعى لتحقيق ذلك.

ثم بعد ذلك أخذه أبوه إلى دمشق فطلب العلم في دمشق في دار الحديث، وكان من شيوخه شيوخ أفاضل كبار في العلم، منهم الإمام إسحاق بن أحمد المغربي، ومنهم الإمام الفزاري، ومنهم أبو محمد عبد الرحمن المقدسي، وغيرهم الكثير الكثير من الذين استقى منهم الإمام النووي -رحمه الله- العلم، فكان -رحمه الله- يأخذ العلم ويستقي العلم من بطون الكتب ومن صدور الرجال.

الإمام النووي -رحمه الله- اشتهر بالزهد والورع والعبادة والصدع بالحق -رحمه الله-، وكان -رحمه الله- لم يتزوج في حياته، وللشيخ عبد الفتاح أبو غدة كتابا أسماه العلماء العزاب الذين فضلوا العلم على الزواج، ذكر منهم شيخ المفسرين الطبري -رحمه الله-، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وبِشر الحافي -رحمه الله-، وذكر منهم ما نحن في الكلام بصدده وحوله وهو الإمام النووي -رحمه الله-، فكان لم يتزوج -رحمه الله-.

ونشأ على يديه من العلماء الكثير، نذكر منهم الإمام بدر الدين بن جماعة، والإمام المزي -رحمه الله-، والإمام الإشبيلي -رحمه الله-، وغيرهم من الأئمة.

وإنما يعرف علم الرجل بأحد أمرين أو بكليهما:

الأمر الأول: بتلامذته. لذلك قال الإمام الشافعي -رحمه الله رحمة واسعة-: "الليث بن سعد -إمام أهل مصر- أفقه من مالك -أي مالك بن أنس رحمه الله-، ولكن أصحابه لم يقوموا به". كما ذكر ذلك الإمام الذهبي -رحمه الله- في سير أعلام النبلاء في المجلد العاشر.

فبيّن أن الإمام الليث بن سعد من العلماء الكبار الذين لا يشق لهم غبار، لكنه لم يذع صيته كالإمام مالك -رحمه الله-، وكالأئمة الأربعة، بسبب أن تلامذته لم يقوموا به، تلامذته لم يشهروا علمه كما فعل تلامذة الأئمة الأربعة.

أما الأمر الثاني الذي يعرف به فقه وعلم الإمام: هو كتبه ومصنفاته.

وللإمام النووي -رحمه الله- الكثير من التراث الذي خدم به الإسلام وخدم به السنة، على رأس تلك المؤلفات التي ألفها هذا الإمام الفاضل شرح صحيح مسلم بن الحجاج -رحمه الله رحمة واسعة-، وكتاب الأذكار، وهذا الكتيب الذي نحن بصدده الأربعون النووية، وكذلك رياض الصالحين الذي ما من بيت وما من مسجد إلا وداخله ذلك الكتاب -أعني به رياض الصالحين-، وهذا من القبول الذي كتبه الله سبحانه وتعالى لهذا الإمام ومؤلفاته.

ومن مؤلفاته -رحمه الله- المجموع في الفقه الشافعي، ولم يتمه -رحمه الله-، بل أتمه بعد ذلك الإمام السبكي، ثم المطيعي -رحمهم الله جميعا-.

توفي الإمام النووي -رحمه الله- في سنة ٦٧٦ للهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة.

***

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)). رواه إماما المحدثين: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما اللذَين هما أصح الكتب المصنفة.

***

الشرح: هذا الحديث العظيم بدأ به الإمام النووي -رحمه الله- هذه الرسالة، وكما قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله-: لو صنفت مصنفا وجعلته على الأبواب الفقهية، لجعلت هذا الحديث في أول كل باب.

وكذلك صنع الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه، فأخرج هذا الحديث في صحيحه أكثر من مرة، لكنه أخرجه في بداية صحيحه، فأول حديث في صحيح البخاري ((إنما الأعمال بالنيات))، والإمام البخاري -رحمه الله- من فقهه أنه يقتصر في الأحاديث على الشاهد منها بعكس الإمام مسلم -رحمه الله-، فإنه يسرد الحديث بطوله ولا يجزئه، أما البخاري فيجزئ الحديث ويضع في كل باب ما يناسبه من ذلك الحديث، فاجتزأ من هذا الحديث ولم يذكر ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله))، بل ذكر ((ومن كانت هجرته لدنيا

يصيبها))، كأنه من تواضعه –رحمه الله– لم يزكِّ نفسه أنه وضع ذلك الكتاب العظيم –أعني به صحيح البخاري– أن نيّتة خالصة لله سبحانه وتعالى، لم يزكِّ نفسه في ذلك وأنب نفسه، وهذا من قبيل التواضع، فرحمه الله رحمة واسعة.

الإمام النووي –رحمه الله– صنع هذا الصنيع في هذه الرسالة، فبدأ بهذا الحديث ليبين أهمية النية من الأعمال جميعا.

وهذا الحديث تفرد به يحي بن سعيد الأنصاري، عن إبراهيم بن محمد التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه وأرضاه–، وبعد يحي أخذه الجم الغفير من أهل العلم ومن الرواة، قيل أكثر من مئتي راوٍ رووا عنه، وقيل سبعمائة راوٍ وهكذا، فبعد ذلك اشتُهِر هذا الحديث حتى سمعت من اليهود المعاصرين من يستدل بهذا الحديث في أثناء كلامه ويعتبره كأنه مثَل، يقول: إنما الأعمال بالنيات..

فهذا الحديث اشتُهِر لا أقول بين المسلمين فقط، حتى بين غير المسلمين؛ وفي ذلك نكتة علمية ينبغي أن يفطن لها طالب العلم؛ لعل بعض ما يدعو إليه الناس لا يُقبل منه إلا النزر اليسير ثم النزر اليسير وهكذا، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى فيبارك في ذلك فينتشر في أرجاء المعمورة.

خذ مثلًا قول الإمام ابن الجوزي رحمه الله رحمة واسعة في [صيد الخاطر]، من خواطره التي دونها في ذلك الكتاب النافع الماتع أنه ذكر وقال: رأيت أن من ينتفع في مجالسي كثير، ولكن الذين ينتفعون من تصنيفاتي ومؤلفاتي ألوف لم يخلقوا بعد.

فينبغي للإنسان أن يحسن نيته لله سبحانه وتعالى في دعوته وفي دروسه وفي مؤلفاته وفي مصنفاته، فبإذن الله سبحانه وتعالى سيبارك له في دعوته ولو بعد حين، ولما استعجل الناس

على الإمام مالك -رحمه الله- في تصنيفه للموطأ، حيث أنه أخذ في تصنيفه سنوات عديدة، قال لهم وأجابهم بكلمته الزاهرة التي اشتُهِرت بعد ذلك وكانت قاعدة، ألا وهي: "ما كان لله بقي".

قال: ((عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه)): وكنية عمر -رضي الله عنه- أبو حفص، والإمام النووي -رحمه الله- من عادته أنه يذكر الصحابة بكناهم سواء كان في هذا الكتيب -أعني به الأربعين- أو كان في رياض الصالحين أو في غيرها، دائمًا ما يذكر كنى الصحابة إلا النزر اليسير.

عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني، أول أمير للمؤمنين، فإن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- عُرف بخليفة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأما عمر فهو أول من أُطلق عليه لقب أمير المؤمنين، وهو أحد وزيري النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، عليّ -رضي الله عنه- كان يقول: دائمًا ما أسمع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: دخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر..

فأبو بكر وعمر هما وزيرا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وصاحباه في الدنيا، وصاحباه في حياة البرزخ في القبر، وصاحباه في الجنة بإذن الله سبحانه وتعالى.

قال -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه بعض أهل السنن: ((اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر وعمر))، وقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديث العرباض بن سارية: ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)). كما رواه الإمام الترمذي -رحمه الله- وغيره.

ومن اللطيف أن بعض علماء أهل السنة والجماعة ذهب إلى بعض ديار أهل الرفض – ديار الشيعة الإمامية– فرآهم يصنعون صنيعًا عجب له، أنهم إذا مات عندهم ميت أخذوه وأدخلوه على قبر رجل، ثم أخرجوه بعد وقت يسير وأدخلوه ودفنوه في قبره، فقال لهم: لماذا تصنعون هذا ومن ذاك الشخص الميت الذي تضعون جثمان هذا الميت الحديث عنده، قالوا: ذلك إمام من الأئمة نضع عنده هذا الميت لكي يشفع له هذا الإمام ببركة الإمام –والعياذ بالله، وهذا من شطحات الرافضة– يغفر لهذا الرجل ثم يدفن بعد ذلك في قبره، فاحتج عليهم بما عندهم، وداوها بالتي هي الداء، قال: عجبًا لكم، كيف جعلتم لهذا الإمام خاصية بأنه ببركته يغفر لمن بقربه لوقت يسير، وأبو بكر وعمر عند قبر رسول الله ﷺ طوال هذه الأعوام وطوال هذه القرون ولم يغفر لهما؟!، طبعًا هذا من باب الاحتجاج عليهم بما عندهم، وأما عندنا فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يغفر الذنوب جميعا.

عمر بن الخطاب هذا الصحابي العظيم الذي قال عنه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– : ((لو كان بعدِي نَبِيٌّ لكان عمر)) [١]، والذي قال عنه رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– كما رواه الترمذي: ((إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه))، وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي جاءت في فضل هذا الصحابي.

ومن الغريب المريب أننا نجد بعضًا لا أقول من الصالحين، بل من الطالحين المعاصرين من يمثل شخصية عمر –رضي الله عنه وأرضاه–، ويتزيّا بزي عمر –رضي الله عنه وأرضاه–، كان الإعلام قبل سنوات عديدة لا يجرؤ أن يطرق هذا الباب، كانوا في بداية الأمر من لعب الشيطان بهم كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور]،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والطبراني.

أول خطوة كانت لأصحاب الإعلام وأصحاب التمثيل أنهم يمثلون بعض أئمة أهل السنة والجماعة كالبخاري، ومسلم، وأبي داوود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثم ساروا إلى خطوة أخرى من خطى الشيطان فمثلوا الصحابة –رضوان الله عليهم وأرضاهم–، إلا العشر المبشرين بالجنة، هكذا خرجت الفتاوى آنذاك: يجوز تمثيل الصحابة إلا العشر المبشرين بالجنة، ثم لم نلبث بعد ذلك إلا وأنهم قد مثلوا العشر المبشرين بالجنة إلا الخلفاء الأربعة، ثم بعد ذلك فاجؤونا بتمثيل الخلفاء الأربعة دون نكير من أحد، ويا ترى هل سنصبح في يوم من الأيام وقد مثلوا الأنبياء عليهم السلام إلا أولي العزم من الرسل، ثم يمثلون أولي العزم من الرسل، ثم يمثلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم –والعياذ بالله–!

النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: ((ليس منا من لم يوقر كبيرنا))، وتمثيل الصحابة –رضوان الله عليهم– ليس من توقيرهم، إذا كان عمر بن الخطاب وهو هو كما رواه عنه الدارمي يقول: لوددت أني لو كنت شعرة في صدر أبي بكر الصديق –رضي الله عنه وأرضاه– . فكيف بأحدنا، وإن كان من الصالحين، وإن كان من الأبرار الأخيار من هذا العصر، أن يظهر ويقول: أنا أبو بكر، أنا عمر، أنا عثمان، أنا علي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نعم نتشبه بهم، نقتدي بهم، نتأسى بهم، وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم.. إن التشبه بالكرامِ فلاحُ.

((قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)): فالأعمال بالنيات، لم يقل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– إنما النيات بالنيات كما يظن البعض، يفعل أي فعل وإن كان الفعل فاسدًا كاسدًا، ويقول: إنما الأعمال بالنيات!

لا بد أن يكون العمل صحيحًا وتكون النية صحيحة، كما سيأتي معنا ويمر معنا من حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-.

يقول الإمام الشافعي -رحمه الله- عن هذا الحديث: هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه. ويقول الإمام أحمد -رحمه الله-: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ((إنما الأعمال بالنيات)). وحديث عائشة رضي الله عنها ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)). وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وأرضاه ((الحلال بيّن والحرام بيّن)).

فالإسلام يدور على هذه الأحاديث.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله في [جامع العلوم والحكم]: فحديث عمر هو لتصحيح الباطن، وحديث عائشة لتصحيح الظاهر.

لا بد من هذين الأمرين، لا بد من هذين الشرطين لقبول أي عمل من الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف]، صالحا: أي على وفق سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا: أي يكون خالصًا لله سبحانه وتعالى، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك]، لم يقل أكثر عملا، بل قال أحسن عملا، قال الفضيل بن عياض كما روى عنه الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره، قال: أحسن عملا أي أخلصه وأصوبه، وأخلصه ما كان لله خالصا، وأصوبه ما كان على وفق هدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)): هل جاءت الجملة الثانية تأسيسًا لمعنى جديد، أم أنها تأكيد وتوكيد لما مضى من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((إنما الأعمال بالنيات))؟

((إنما الأعمال بالنيات)) هي لكي تفرق بين عمل وعمل، سواء كان من تفريق العبادات عن العادات أو العبادات بعضها عن بعض.

فمثلًا رجل يصلي ركعتين.. هل هما ركعتي سنة الفجر أم هما فريضة الفجر؟ بالنية يميز بين العمل هذا وذاك، بين هذه العبادة وهذه العبادة.

رجل يصوم.. هل هو صوم الفريضة أم هو صوم النافلة أم هو صوم لنذر من النذور التي نذرها وأوجبها على نفسه، أو نحو ذلك؟ بالنية يتميز العمل.

كذلك التمييز بين العادات والعبادات، فمثلًا رجل يمسك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، هل هو صائم متعبد لله سبحانه وتعالى بذلك، أم هو مضرب عن الطعام، أو هو قام بذلك تخسيسًا لوزنه ونحو ذلك، فبالنية تختلف وتميز العبادات عن العادات.

رجل أسبغ على جسده الماء الطهور، فعل ذلك من قبيل التبرد، أو فعل ذلك للتنظيف، أو فعل ذلك لرفع الحدث الأكبر؟ بالنية تتميز تلك الأعمال، فصورة العمل واحدة، لكن النية هي التي تميز بين هاتيك الأعمال، بين العبادات والعادات.

((وإنما لكل امرئ ما نوى)): هل أنت نويت ذلك العمل لله سبحانه وتعالى أم لغيره؟ هل عملت ذلك العمل رياء وسمعة، أم عملته لله سبحانه وتعالى؟

ثم ضرب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– مثالًا واحدًا على تلك الأعمال الفاضلة، على تلك العبادات، وهي مسألة الهجرة ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

ضرب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– مثالًا، وبالمثال يتضح المقال، وهذا من حسن أسلوب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، كيف وهو الذي أوتي جوامع الكلم –صلى الله عليه وآله وسلم–، ضرب مثالًا لعبادة من أجلّ العبادات، ألا وهي الهجرة، والهجرة واجبة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام.

ديار الكفر: هي التي تعلوها أحكام الكفار، وإن كان القاطنين فيها من المسلمين، وإن كان أهلها من المسلمين، والعكس بالعكس.

ديار الإسلام: هي التي تعلوها أحكام الإسلام، وإن كان القاطنون فيها من الكفار، أو أغلب القاطنين فيها من الكفار.

فلا علاقة بين أهل الأرض وبين حكم الديار، فمثلًا خيبر لما فتحت وعلتها أحكام الإسلام فهي دار إسلام، وكان أكثر أهل خيبر من اليهود.

فالهجرة واجبة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وقد جاءت الأحاديث في ذلك تترى.

قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)): ولم يقل فهجرته إلى دنيا يصيبها وإلى امرأة ينكحها، بل نكّر ذلك تحقيرًا لذلك، فمن الآداب في أثناء الكلام أن يحقّر الإنسان الأمور التي يُتنزه عن ذكرها تحقيرًا لشأنها، ولا تذكر الأمور المعيبة أو التي تخل بالمروءات، وإنما يكنى عنها.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء]، قال عبد الله بن عباس هذا العالم النبراس: الملامسة الجماع، ولكن الله كريم، يكني بما يشاء.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان]، قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: إذا مروا بذكر النساء تجاوزوه إلى غيره.(١)

قال الإمام الأحنف بن قيس -رحمه الله- بما ذكره عنه الإمام الذهبي رحمه الله في [سير أعلام النبلاء، في المجلد الرابع]، قال: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، فإني أبغض الرجل يكون وصافًا لفرجه وبطنه.

(١) لم أجده، وعن مجاهد، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ قال: كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كفوا عنه.

الحديث الثاني

عن عمر -رضي الله عنه- أيضا، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)) قال: صدقت، فعجبنا له! يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)). قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)). قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: ((أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان))، ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال: ((يا عمر، أتدري من السائل؟)) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)). رواه مسلم.

***

الشرح: هذا حديث عظيم من الأحاديث التي جاءت في سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأصله كما عند مسلم، أن يحيى بن يعمر -رحمه الله- قال: كان أول من

قال في القدر بالبصرة هو معبد الجهني، فانطلقتُ أنا وحُميدُ بن عبد الرحمن الحميريّ حاجَّين، أو مُعتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحابِ رسول الله ﷺ -وفي ذلك سؤال أهل العلم فيما يشكل من المسائل- فسألناه عما يقولُ هؤلاء في القَدَر، فوفِّقَ الله لنا عبدَ الله بن عمر داخلاً في المسجد، فاكتنفتُه أنا وصاحبي، فظننتُ أن صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظَهرَ قِبَلَنا ناسٌ يقرؤونَ القرآن، ويَتَقفَّرُونَ العلمَ، يزعمون أنْ لا قَدَرَ، والأمْرُ أُنُفٌ، فقال: إذا لقيتَ أولئك فأخبرْهم أني بريءٌ منهم، وهُمْ برآء منّي، والذي يَحلفُ به عبد الله بن عُمر، لو أن لأحدِهم مثلَ أُحدِ ذهباً فأنفقه، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقَدَرِ.

ثم قال: حدثني أبي، ثم ساق هذا الحديث.

وفي هذا الحديث الاستدلال لمدرسة الإمام مسلم -رحمه الله- في سياق الحديث برمته، وإنما هو يريد منه الشاهد في مسألة الإيمان بالقضاءِ والقدر في الاحتجاج على أولئك القدرية.

والقدرية هم الذين يقولون أن الأمر أنف ولا قدر، أي: أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها -والعياذ بالله-، وأهل السنة والجماعة وسط في تلك المسألة -في باب القضاء والقدر- بين القدرية وبين الجبرية.

القدرية: الذين يقولون أن الإنسان مخير لا مسيّر.

والجبرية: هم الذين يقولون أن الإنسان مسيّر لا مخير.

وأهل السنة والجماعة: يتوسطون في ذلك، فالإنسان مسير ومخير في آن واحد، له مشيئة لكن مشيئة داخلة ومندرجة تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان].

ومن القدرية في هذا الزمان شخص يسمى عدنان إبراهيم (الدكتور عدنان إبراهيم) قال في بعض أشرطته المصورة أن الإنسان مسيّر لا مخير.

فهو وافق أولئك القدرية الذين قال فيهم عبد الله بن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-: "فأخبرهم أني بريء منهم".

والبراءة من المسلم لا تجوز، بل البراءة تكون من عمل المسلم إذا خالف الصواب، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء]، ما قال إني بريء منكم وإنما مما تعملون، فتبرأ من عمل المسلمين المخالف لشريعة رب العالمين.

أما الكفار فيتبرأ منهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة]، فتبرؤوا من قومهم وكذلك تبرؤوا من معبودات قومهم.

فهذا ظاهر قول ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه يرى تكفير القدرية.

ثم ساق هذا الحديث الذي هو من الأحاديث الجامعة في أبواب الخير، في أبواب الدين، حيث ذكر في هذا الحديث الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال النبي ﷺ: "هذا جبريل جاءكم يعلمكم أمور دينكم"، فسمى الإسلام مع الإيمان مع الإحسان كل ذلك دين.

فهذا هو الدين: يشمل على الإسلام والإيمان والإحسان.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنه ينبغي لطالب العلم أن يقرب من معلمه ولا ينأى عنه، واستُفيد ذلك من فعل جبريل عليه السلام حيث دنا من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–
.

قال: "جاء رجل شديد بياض الثياب" في هذا الحديث قرينة على سنية لباس البياض من الثياب، ويؤخذ من أحاديث أخرى، كالحديث الذي رواه الحاكم عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: ((البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم)).

وجاء عن عمر –رضي الله عنه وأرضاه– أنه قال: إني أحب أن يكون القارئ أبيض الثياب. وكذلك جاء في سبب تسمية الحواريين –أصحاب عيسى عليه السلام– بذلك الاسم (بالحواريين) لأنهم كانوا يلبسون البياض من الثياب.

قال: ((شديد بياض الثياب)) أي: لا يظهر عليه أثر السفر.

((شديد سواد الشعر)): وفي بعض الروايات جاء أيضًا وصف لحية ذلك السائل، وهو جبريل عليه السلام.

قال: ((لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد)): إذ أن المجتمع المدني في المدينة كل منهم يعرف الآخر، ولم يصح عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ما يتناقله الناس على ألسنتهم: "أن الإسلام وصى بسابع جار"، وإنما الصحيح كما جاء عند البخاري في الأدب المفرد، أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وصى بأربعين من الجوار عن كل جهة، عن الأمام والخلف واليمين والشمال.

فالمجتمع الإسلامي مترابط بعضه مع بعض، كل يعرف الآخر، كل يعرف جيرانه وأهل بلدته، ويسأل عنهم إذا غابوا ويفتقدهم، إلى غير ذلك.

فهم من العجيب في هذه القصة أنهم لا يعرفونه، وفي الوقت نفسه أنه لا يظهر عليه أثر السفر، فظنوه من بعض الأعراب من أهل البادية، وبذلك تظاهر جبريل عليه السلام، حيث قال "يا محمد"، فإن أصحاب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لا ينادونه باسمه تعظيمًا له، بل يقولون له يا رسول الله.

فقال له "يا محمد" على عادة الأعراب، ويؤخذ من ذلك جواز التورية، وقد جاءت في ذلك بعض الأحاديث، وجاء في ذلك قول النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب))، وبوبه البخاري وجعله بابًا في كتاب الأدب من صحيحه، وكذلك لما سئل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في بعض غزواته –وهي غزوة بدر– ممّ أنتما؟ (أي هو وأبو بكر)، قال: ((نحن من ماء)). أي: أصل خلقة الإنسان من ماء، فقال من ماء؟! من ماء ماذا؟ لأن بعض العرب ينسبون للماء الذي يكونون عنده ويشربون منه. وكذلك في فعل إبراهيم عليه السلام لما قال عن سارة هي أختي وأراد أخته في الإسلام، كما جاء في الصحيحين من حديث الشفاعة.

ذهب بعض المعاصرين إلى أنه يؤخذ من صنيع جبريل عليه السلام جواز التمثيل، والصحيح أنه لا يُؤخذ من هذا الحديث جواز التمثيل، ولا يُؤخذ من فعل جبريل عليه السلام جواز التمثيل؛ لأن الملائكة عباد خلقهم الله سبحانه وتعالى وفطرهم على عبادته، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم]. وهم غير مكلفين كالثقلين الإنس والجن، فلا يُستشهد ولا يُستدل بصنيعهم وأفعالهم، إنما فعل جبريل عليه السلام بأمر الله سبحانه وتعالى له.

سأله بادئ ذي بدء عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان؛ ففي ذلك حجة لمن قال أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. أي: إذا ذُكر الإيمان فحسب أو ذُكر الإسلام فحسب، فالمراد واحد وهو الدين، المراد واحد وهو الاعتقاد بالجنان والنطق والإقرار باللسان والعمل بالجوارح والأركان، أما إذا ذُكرا في مجمع واحد، فكل منهما يُراد به معنى مختلف، فالإسلام يدل على الأعمال الظاهرة، والإيمان يدل على الأعمال الباطنة.

((الإسلام)): هو ما يُعرف بأركان الإسلام التي ذكرها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

في الحديث الذي بعد ذلك، سيقدم النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بعض الأركان على بعضها، وهذا من قبيل الذكر ليس إلا، هنا قدم صيام رمضان على الحج، وهناك قدم الحج على صيام رمضان.

الشهادة: من المشاهدة، فكأنك تشاهد ذلك ليقينك وجزمك بأن لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، وتشهد كذلك أن محمدًا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

من شهد أن لا إله إلا الله وجحد نبوة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فهو ليس بمؤمن، وهو من الخالدين المخلدين في نار جهنم حتى يؤمن برسالة النبي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم–.

لو وجد من اليهود من آمن بجميع الأنبياء، وكان من الموحدين لا يشرك بالله شيئًا، ولكن لم يؤمن بنبوة عيسى عليه السلام ولا بنبوة محمد ﷺ؛ فهو كافر خالد مخلد في النار، كذلك من النصارى، لو وجد منهم من الموحدين الذين لا يشركون بالله شيئا، لكنهم لم يؤمنوا

بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد بعثته؛ فهم من الكفار الخالدين المخلدين في نار جهنم. قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة...)) أي أمة الدعوة والبلاغ وليس من أمة الاستجابة. قال: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار)) [(١)].

فلا بد من الشهادتين، ومقتضى الشهادة الأولى: "أن لا إله إلا الله" إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى. ومقتضى الشهادة الثانية: "أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" الاتباع، اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فنوحد الله في العبادة، في إخلاص العبادة له، ونوحد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الاتباع، ألا نتبع إلا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، نعبد الله سبحانه وتعالى بما جاءنا عن طريق رسول الله ﷺ.

((وتقيم الصلاة)): الإقامة ليست كالأداء، الإقامة أن تقيمها إقامة صحيحة بجميع أركانها، بجميع واجباتها، بجميع شروطها، بجميع سننها، إلى غير ذلك.

والواجب من الصلوات عند جماهير العلماء هي الصلوات الخمس، وذهب الأحناف إلى زيادة صلاة الوتر، ولكن الأحناف يفرقون بين الفرض وبين الواجب، فيجعلون الفرض أعلى من الواجب، ويقولون أن هذه الصلوات الخمس: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، هي من الفرائض، وأما الوتر فهي من الواجبات.

[(١)] رواه مسلم.

وأما جمهور العلماء المالكية والشافعية والحنابلة، فإنهم لا يفرقون بين الفرائض والواجبات، ولذلك لا يقرون من الصلوات المفروضات إلا الصلوات الخمس في اليوم والليلة، وأما الوتر فهي أفضل صلاة بعد الفريضة كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

قال: ((وتؤتي الزكاة)): والزكاة حق المال، وقاتل أبو بكر -رضي الله عنه- مانعي الزكاة، وقالوا قاتل من فرق بين الصلاة والزكاة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾[التوبة]. فلا بد من إيتاء الزكاة، وهو ركن ركين من أركان الإسلام الخمسة.

والزكاة واجبة في الأموال الزكوية، وهي النقدين: الذهب والفضة، وما تفرع عنهما من الأوراق النقدية اليوم في هذا العصر، والماشية، وعروض التجارة، والخارج من الأرض. فهذه التي تجب فيها الزكاة بأنصبة معلومة مبسوطة في مظانه من كتب الفقه.

قال: ((وتصوم رمضان)): رمضان هذا الشهر المبارك بين شعبان وشوال.

والعجيب أن بعض صغار السن ممن كنت أدرسهم أسألهم: متى يفرض الصيام؟ في أي شهر يفرض الصيام؟ أكثرهم لم يعرف ذلك، بعضهم قال شعبان، وبعضهم يقول شوال، فالله المستعان.

رمضان هو الشهر الواجب صيامه على المسلمين، بادئ ذي بدء لم يوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين صيام رمضان، بل أوجب صيام بعض الأيام، كصيام يوم عاشوراء، في بداية الأمر كان واجبًا، ثم نُسخ الوجوب إلى الاستحباب، فمن شاء صامه ومن شاء لم

يصمه، أما رمضان فقد فرض الله سبحانه وتعالى صيامه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة].

((وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)): وحج البيت يكون في الأشهر المعلومة من أشهر الحج، ويقصد البيت بالحج. وفي بعض الروايات: "تحج وتعتمر". فاختلف بعض أهل العلم في العمرة، هل هي واجبة أم لا، هل هي كالحج أم لا، وقد جاء في بعض كتب السنن أن العمرة حج أصغر، كما جاء عند ابن ماجه -رحمه الله رحمة واسعة-.

الاستطاعة في الحج هي: الراحلة والنفقة وأمن الطريق، وزيادة للمرأة المحرم على الصحيح.

وذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الاستطاعة في الحج دون غيره لأن الحج مظنة للمشقة، فيه مشقة عظيمة، فذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((إن استطعت إليه سبيلًا)).

والعبادات جميعها منوطة بالاستطاعة، لكن استطاعة كل عبادة تختلف عن الأخرى، فمثلًا الاستطاعة في الصلاة المفروضة إنما هي العقل، من توفر فيه العقل من الرجال فتجب عليه الصلاة على كل حال، أما النساء فلا تجب عليهم الصلاة في الحيض والنفاس كما تعلمون.

الرجل إذا كان لديه العقل فتجب عليه الصلاة على أي حال كان، إن لم يستطع أن يصلي قائمًا يصلي قاعدًا، إن لم يستطع أن يصلي قاعدًا يصلي مضطجعًا، وهكذا، حتى إن لم يستطع إلا أن يحرك عينيه ويومئ بالصلاة كان له ذلك، حتى إن لم يكن له من استطاعته إلا استحضار أفعال الصلاة كان له ذلك ووجبت عليه الصلاة ما كان صاحب عقل.

فاستطاعة الصلاة هي العقل على الصحيح، ولكل عبادة من العبادات استطاعة جاءت عليها الأدلة من الكتاب والسنة تقيّد تلك العبادة، فكل العبادات منوطة بالاستطاعة، ولا مزيّة للحج على غيره بذلك إلا أنه موطن للمشقة، فذكر ذلك فيه.

(قال: صدقت. قالوا: فعجبنا له يسأله ويصدقه): كيف هو لا يعلم ويسأل سؤال متعلم ثم بعد ذلك يصدقه! إنما ذلك ينتج عن سؤال العالم، العالم يسأل بعض أقرانه أو يسأل بعض تلامذته، فإن أجابه يقول: "صدقت". وأما المتعلم فلا يقول: "صدقت"؛ إذ أنه إنما استفاد تلك المعلومة واستفاد تلك الفائدة من المتكلم الذي أفاده بها.

ثم سأله بعد ذلك عن الإيمان، فقال: ((الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)): في بعض الروايات: "حلوه ومره".

فالإيمان أن تؤمن بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بالله سبحانه وتعالى يقتضي منك الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى، توحد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته.

ثم الإيمان بملائكة الله سبحانه وتعالى، وقدم الملائكة على الكتب وعلى الرسل لأنهم الواسطة، إذ أن منهم من يرسله الله سبحانه وتعالى لخلقه بالكتب وبالرسالة.

وقدم الإيمان بالملائكة لأنهم من الأمور الغيبية الغائبة عنا، فالإيمان بها أعظم، والإيمان بها آكد، بعكس الرسل والكتب فإنها مشاهدة محسوسة، وقد بعث الرسل الذين كانوا قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم [إلى أقوامهم]، كما جاء في الصحيحين: ((أوتيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي)) وذكر منها ﷺ: ((وكان النبي يبعث إلى قومة خاصة وبعثت إلى الناس عامة)).

فالأنبياء يبعثون في أقوام ويشاهدونهم، وكذلك الكتب، فلذلك قدم النبي ﷺ الإيمان بالملائكة على الكتب والرسل.

ونؤمن بالملائكة بما فصله الله سبحانه وتعالى لنا وفصله رسول الله ﷺ لنا منهم، نؤمن به على شكله أو على التفصيل.

وأما ما أجمل من ذكرهم فنؤمن به على سبيل الإجمال، فقد ذكر لنا في الكتاب والسنة عن بعضهم وعن بعض وظائفهم، فذكر لنا جبريل عليه السلام وأنه المخول بالوحي وبالنزول على الأنبياء والمرسلين بالوحي، وذكر لنا ميكائيل وهو الموكل بالقطر، وذكر لنا إسرافيل وهو الموكل بالنفخ، وذكر لنا منكر ونكير كما صح ذلك، ولما سئل الإمام أحمد -رحمه الله- عن تسمية الملائكة التي تسأل العباد في قبورهم بمنكر ونكير، قال: نعم ثبت ذلك. ولم يثبت أنهم يسمون بغير تلك الأسماء مثل مبشر وبشير، لم يصح فيه حديث.

كذلك الملكان اللذان يكتبان الحسنات والسيئات، وقيل يكتبان كل شيء يصدر من العباد، وقيل في تسميتهم رقيب وعتيد، وقيل هي أوصاف لهم وليست أسماء ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]. وهكذا في بقية ما صح من أسماء الملائكة وما صح من وظائف الملائكة، ولم يصح في تسمية ملك الموت شيئًا، لم يصح في ذلك أنه يسمى بعزرائيل.

ثم ذكر: ((وكتبه)): نؤمن كذلك بالكتب.

نقول في الكتب ما قلناه في الملائكة، نؤمن بما فصل من الكتب بشكل مفصل، وما أُجمل بشكل مجمل، فنؤمن بالكتب التي سميت لنا وذكرت في الكتاب والسنة، كالتوراة (نزل على موسى)، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى، والزبور الذي نزل على داوود.

وأن أفضل الكتب وأشمل الكتب والمهيمن على سائر الكتب والناسخ لكل ما خالفه من الكتب التي سبقته هو القرآن الكريم.

وقد ذكر الإمام ابن حزم -رحمه الله رحمة واسعة-، وكذلك الإمام ابن كثير رحمه الله رحمة واسعة في [البداية والنهاية، المجلد الثاني عشر] إجماع علماء المسلمين على أن من حكم بالتوراة غير المحرفة (ولكنها منسوخة)، أو حكم بالإنجيل غير المحرف (ولكنه منسوخ بالقرآن)، من حكم بها فهو كافر مرتد خارج عن الإسلام، فكيف بمن حكم بالكتب الوضعية الأرضية؟!

((وتؤمن باليوم الآخر)): بكل ما ورد في الكتاب والسنة عن أحداث اليوم الآخر من حساب ومن صراط ومن شفاعة ومن قنطرة ومن جنة ونار، إلى غير ذلك من الأحداث التي تحدث في اليوم الآخر، وكذلك نؤمن بمقدمات اليوم الآخر وهي حياة البرزخ.

فإن الإنسان يعيش في خمسة عوالم:

العالم الأول: لما كنا في ظهر أبينا آدم.

العالم الثاني: هو عالم الأرحام في بطون الأمهات.

العالم الثالث: هو عالم الحياة الدنيا.

العالم الرابع: هو حياة البرزخ، سواء كان في القبر أو في غيره. لو ذُري الإنسان، لو احترق، لو غرق في البحر، لو أكلته السباع، لو أكلته الأسماك، كل ذلك يسمى حياة البرزخ. وإنما أطلق على هذا العالم بعالم القبور، حياة القبور؛ لأن أكثر الناس يقبرون، والنادر لا حكم له. فهذا العالم الرابع من العوالم التي يمر بها الإنسان.

العالم الخامس: هو اليوم الآخر.

ومن الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بأشراط الساعة، ما جاء في الكتاب وصحيح السنة من أشراط الساعة وعلامات الساعة وأمارات الساعة، كما جاء في هذا الحديث ذكر بعض علامات وأمارات الساعة.

قال: ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)): تؤمن بقضاء الله وقدره، وهذا الركن من أركان الإسلام سيق لأجله الحديث كما مر معنا في الرد على القدرية.

قال: "صدقت" كما قال في الأولى.

بعد ذلك سأله عن الإحسان، قال في تعريف الإحسان -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)): تعبد الله كأنك تراه، وهذا ما يسميه بعض أهل المعرفة بالمكاشفة، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ تستحضر معية الله سبحانه وتعالى لك بالسمع والبصر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ لموسى وهارون عليهما السلام.

فالله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية، يرانا في كل مكان وفي كل زمان، ويعلم السر وأخفى سبحانه وتعالى، فنستشعر ذلك في خلواتنا وفي جلواتنا أن الله سبحانه وتعالى يرانا في ذلك الحين وفي كل حين.

فمثلًا لو قيل للإنسان أن عليك عدسة تصوير تصورك في هذا المكان، في هذه الوظيفة، لا شك أنه سينضبط بضوابط تلك الوظيفة، فكيف لو قيل له أن الله سبحانه وتعالى -ولله المثل الأعلى- يراه في كل حين! فلا شك أنه سيحسن في عبادة الله سبحانه وتعالى، وأنه لن يخرج منه من الأقوال والأفعال إلا ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)): وفي ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يعلم الغيب، لا يعلم إلا ما علمه الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي، قال له أنا وأنت يا جبريل شركاء في عدم معرفتنا بعلم الساعة، علم الساعة لا يعلم ذلك الحين إلا الله سبحانه وتعالى.

فعرج جبريل عن ذلك السؤال إلى سؤال آخر: (فأخبرني عن أماراتها): أي عن أشراط الساعة.

فذكر له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض أشراط الساعة وبعض علامات الساعة، وهي كثيرة، جاء منها في هذا الحديث:

الأمارة الأولى: أن تلد الأمة ربتها. وهذا ما فسره بعض شراح الحديث بـ "أم ولد". أي: أن ينكح الرجل جاريته، فتلد له الأولاد، ثم بعد موته تصبح حرة، يعتقها أولادها، هذه الكناية جاءت في الحديث.

وقيل غير ذلك؛ قيل أن تلد العجم العرب، وقيل أن تتطاول البنات على أمهاتهن. وهذا من الأمور الفاشية، لا سيما في هذا العصر، فكأن البنت هي سيدة الأم -ولا حول ولا قوة إلا بالله-.

الأمارة الثانية: أن يتطاول الحفاة العراة (هم الأعراب) في البنيان. وهذا مشاهد، لا سيما في جزيرة العرب.

وقد روى الإمام الترمذي والإمام أحمد -رحمهما الله- أنه ((لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع)).

فانصرف جبريل عليه السلام بعد ذلك، وأخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- به، وأنه ما سأل ذلك إلا ليعلمكم، وسمى كل ما سأل عنه من الدين.

وفي ذلك جواز سؤال العالم ليفيد غيره؛ أن يسأل السائل سؤالًا هو يعلم الجواب عليه، ولكن ما سأل ذلك السؤال إلا ليعلم غيره.

وهذا لا يدخل في قول بعض السلف: من سأل وهو يعلم، فهذا نوع من الرياء، كما قال بعض السلف، هذا لا يدخل فيه إن قصد تعليم غيره.

الحديث الثالث

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: هذا الحديث يؤكد ما كنا قد ذكرناه في الحديث الفائت من دعائم الإسلام، من أركان الإسلام.

((بني الإسلام على خمس)): أي على خمس دعائم، والإسلام مبني على هذه الدعائم.

اختلف العلماء في كفر من ترك أحد الدعائم الأربعة، لم يختلفوا في كفر تارك الشهادتين، ولم يختلف أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في كفر تارك الصلاة، ولكن اختلف من بعدهم في كفر تارك الصلاة، فذهب الجمهور من المالكية والشافعية والأحناف إلى عدم كفر تارك الصلاة تكاسلاً وتهاونًا، ما لم يجحد الصلاة.

وذهب الحنابلة -وهو الصحيح بإذن الله سبحانه وتعالى- إلى كفر تارك الصلاة، واستدلوا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، منها:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم]، ومنها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة)) [١]، ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)) [٢].

عرّف الشرك والكفر بأل التعريف، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في [اقتضاء الصراط المستقيم] أن الكفر إذا عرّف بأل التعريف فإن المراد منه الكفر الأكبر وليس الكفر الأصغر.

كذلك قال عمر -رضي الله عنه وأرضاه-، لما طعنه ذلك المجوسي الخبيث ولما أفاق بعد غيبوبته، قال: أصلى الناس؟ قالوا: نعم، فقال عمر: "لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة".

---

[١] أخرجه مسلم.

[٢] أخرجه أحمد في مسنده.

فترك الصلاة كفر أكبر مخرج من الملة، ولا يفرق بين من تركها جحدًا ومن تركها تكاسلاً وتهاونًا؛ إذ أن الجحود بوجوب الصلاة كفر مستقل، مناط مستقل من مناطات الكفر، من جحد الصلاة وإن كان يصلي فهو كافر، فهذا ناقض آخر من نواقض الإسلام.

أما الترك فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم -وهو أفصح من نطق بالضاد- قال: ((فمن تركها فقد كفر))، ولم يقل: من جحدها.

أما بقية أركان الإسلام فاختلف العلماء في تكفير تارك بعضها، من ترك الزكاة اختلف في تكفيره، ومن ترك صيام رمضان اختلف في تكفيره، ومن ترك حج البيت اختلف في تكفيره، وهي روايتان عن الإمام أحمد -رحمه الله رحمة واسعة-.

إلا أن هذه مسألة، وترك الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج) مسألة أخرى..

من ترك جنس العمل فهو كافر بإجماع أهل السنة والجماعة، كما قال الإمام إسحاق بن راهويه والإمام أحمد -رحمهما الله-.

مسألة أخرى: مسألة الترك شيء، والامتناع على الترك شيء آخر.

فمثلًا، ترك الزكاة كبيرة من كبائر الذنوب، أما الامتناع بالقوة والشوكة والمنعة على ترك الزكاة فهو كفر أكبر مخرج من الملة، وإنما قاتل أبو بكر الصديق مانعي الزكاة لأنهم امتنعوا عن أدائها بالقوة والشوكة.

ترك الزكاة كفر دون كفر، ترك الزكاة كبيرة من كبائر الذنوب، أما الامتناع على ترك الزكاة بالقوة والشوكة والمنعة فهو كفر أكبر مخرج من الملة، وقد أجمع الصحابة -رضوان الله عليهم-

بعد الحوار مع أبي بكر الصديق في قتال هؤلاء أجمعوا ورسا قول الصحابة أجمعين على كفر الممتنعين.

من امتنع عن شعيرة ظاهرة من شعائر الدين بالقوة والشوكة والمنعة؛ فهو كافر كفر أكبر مخرج من الملة.

من امتنع على ترك الزكاة، على ترك الحج، على ترك الصيام، على ترك الجهاد، على ترك ضرب الجزية على الكفار كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في [مجموع الفتاوى، في المجلد الثامن والعشرين، في غير ما موضع من تلك الفتاوى]، نقل الإجماع على تكفير أولئك الممتنعين إذا امتنعوا على ترك الواجبات أو على فعل المحرمات.

أي طائفة تمتنع على ذلك فهي كافرة تقاتل قتال المرتدين، وليس قتال البغاة أو نحوهم من جملة المسلمين.

ونقل الإجماع على ذلك الإمام ابن قدامة المقدسي -رحمه الله رحمة واسعة-، وبعض الأئمة المالكية -رحمهم الله-، وغير ما واحد من أهل العلم.

ثم اختلفوا بعد ذلك في حكم الامتناع على ترك السنن، الامتناع فيما لو امتنعت طائفة بالقوة والشوكة على ترك الأذان لمن يراه سنة، أو على ترك السنن الرواتب. قال بعض العلماء بقتالهم قتال المرتدين، وقال بعض العلماء بغير ذلك.

فالعلماء اختلفوا في الطائفة التي تمتنع على ترك السنن، لكنهم أبدًا ما اختلفوا في من يمتنع بالقوة والشوكة على ترك الواجبات الظاهرات من واجبات هذا الدين.

إذا كان الصحابة -رضوان الله عليهم- كفروا مانعي الزكاة لأنهم تركوا وامتنعوا على ترك الزكاة فحسب، مع أنهم يصلون ومع أنهم يحجون ومع أنهم يقومون بفرائض الإسلام، إلا أنهم امتنعوا عن الزكاة فحسب بالقوة والشوكة والمنعة، فأجمع الصحابة على كفر أولئك، فكيف بمن يمتنع بالقوة والشوكة والمنعة على ترك الحكم بما أنزل الله جملة وتفصيلًا، ويحكم بالأحكام الوضعية في كل شيء، سواء كان في الزكاة أو في غيرها..؟! كيف يكفر الصحابة أولئك ولا يكفرون الصورة الأخرى؟! ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.[القمر]

الحديث الرابع

عن أبي عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: ((إن أحدكم يُجمَعُ خلقُهُ في بطن أمه أربعين يومًا نُطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٍ أم سعيد؛ فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- من أجلّ أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو من فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة الذين ذكرهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن الأربعة الذين ذكر ﷺ أنهم يؤخذ عنهم القرآن.

ويقول عنه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: كُنَيفٌ مُلِئ علما. أي أنه نحيف وقصير، ولكنه مملوء من العلم بالوحيين الكتاب والسنة.

ويقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لأهل العراق: وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي. حيث أرسل عبد الله بن مسعود ليفقه أهل العراق وليفتي أهل العراق.

وغالب مدرسة أهل العراق إنما يروون عن عبد الله بن مسعود ويأخذون عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-.

يقول: "حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق": وفي ذلك من فقه عبد الله بن مسعود، حيث أنه بدأ هذا الكلام الذي فيه شيء من علم الغيب، من الأمور الغائبة عنا، ومنها القضاء والقدر، ومنها ما كتب لنا في أرزاقنا، وآجالنا، وشقي أم سعيد؛ لما أراد أن يقدم لذلك من حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قدّم بقوله "وهو الصادق المصدوق".

وفي ذلك أنه ينبغي للإنسان حينما يتكلم بأمر لا بد أن يقدم له بمقدمة مناسبة لذلك الأمر، وإن ظن أن الناس قد يشكون أو قد يرتابون في كلامه أو نحو ذلك، فعليه أن يقدم بما يؤكد صدق كلامه.

"وهو الصادق": أي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- صادق في كل ما يقول، كما قال لعبد الله بن عمرو، قال: ((اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)) [١].

"المصدوق": أي أنه مصدوق فيما أُخبر به من طريق الوحي. أي أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد صدقه جبريل فيما يخبره عن ربه سبحانه وتعالى.

ذكر أطوار خلق الإنسان في بطن أمه، أنه يكون في بداية الأمر في خلال أربعين يومًا نطفة، والنطفة هي السائل وهو المني، ثم بعد أربعين أخرى يكون علقة، والعلقة هي القطعة من الدم التي تعلق في الرحم، ثم يكون بعد ذلك مضغة، والمضغة هي

---

[١] رواه أبو داوود.

القطعة من اللحم تكون بمقدار ما يمضغه الإنسان، ثم بعد ذلك يرسل إليه الملَك، بعد أربعة أشهر في بطن أمه في تلك الأطوار التي يمر بها الإنسان في خلقه يبعث الله سبحانه وتعالى له ملكا، ولم يُسمِ ذلك الملك المختص بهذا الأمر، فينفخ فيه الروح، والروح قد حيرت العالم، قد حيرت الناس، ما هي ماهية الروح، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء].

((ويؤمر بأربع كلمات)): أي أن الملائكة عباد من عبيد الله سبحانه وتعالى يؤمرون وينهون، النبي ﷺ بين أن ذلك الملك يؤمر، والآمر له هو الله سبحانه وتعالى.

((بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد)): فيكتب له كل ذلك في حين نفخ الروح فيه، يكتب له أجله، كم سيعيش، هل سيسقط من بطن أمه ميتا، هل سيموت في صغره، هل سيموت في شبابه، هل سيموت بعد ذلك في هرمه وشيخوخته.. كل ذلك مدون.

كذلك رزقه كتبه له، وفي ذلك بيان ورد على القدرية الذين ينفون علم الله سبحانه وتعالى بأفعال العباد، [ويدّعون] أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم بأفعال العباد وأعمال العباد إلا بعد وقوعها –والعياذ بالله–.

((وشقي أم سعيد)): أي من أهل السعادة وهم أهل الايمان والتقى والصلاح والفلاح والرباح، أو من أهل الشقاوة من الكفار –والعياذ بالله–، أو من المنافقين –والعياذ بالله–، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من السعداء، أن يحيينا حياة السعداء ويميتنا موت الشهداء.

ثم أقسم –صلى الله عليه وآله وسلم–، والبعض قال وتوهم أن هذا القسم وما بعده من إدراج عبد الله بن مسعود، أي من كلام عبد الله بن مسعود، والأمر إذا توهم في حديث

رسول الله ﷺ أهو منه أم لا، فالأصل أنه من حديث رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–
.

((فوالله الذي لا إله غيره)): وفيه استحباب القسم في الأمور العظيمة، وخاصة ما يتعلق بالدين.

قال: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)): هذا الحديث مخوف جدا، ولكن قد جاءت الروايات الأخرى تقيد هذا الحديث، جاء في بعض الروايات: ((وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)) أي أنه كان مرائيا، كان منافقا، ولم يعمل تلك الأعمال من أعمال البر التي تقربه إلى الجنة لله سبحانه وتعالى، وإنما عملها لكي يقال فلان فعل كذا وكذا..

وتعلمون الحديث الذي رواه الإمام مسلم –رحمه الله– عن أبي هريرة، في أولئك الثلاثة الذين أول من تُسعر بهم النار، رجل جاهد ولكن لكي يقال أنه شجاع وأنه مقدام فيساق به إلى النار، ورجل قرأ القرآن لا لله تعالى بل ليقال أنه قارئ فيساق ويؤخذ به إلى النار، ورجل متصدق يتصدق لكي يقال أنه جواد وأنه كريم فيساق به إلى النار –والعياذ بالله– [١].

---

[١] قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ

فالشاهد من هذا الحديث أن الذي يسبق عليه الكتاب في آخر حياته بعد أن عبد الله سبحانه وتعالى إنما هو المرائي الذي كان في قلبه دسيسة للدين، أما المؤمن الورع الخاشع الزاهد العابد لله سبحانه وتعالى المخلص في عبادته لله فإن الله لا يخذله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم]. بالقول الثابت في الحياة الدنيا بأن يوفقه ليموت على التوحيد، على الشهادتين، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوود: ((من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)).

ذكر عن الإمام أبي زرعة الرازي –رحمه الله– أنه لما حضرته الوفاة ذهب له بعض أقرانه لكي يذكره بالشهادة، فذهب له أبو حاتم الرازي قرينه في طلب العلم وهو قريب له، وذهب له بعض أصحابه في طلب العلم، فلما دخلوا على أبي زرعة وهو على فراش الموت بدأ أحدهم بأن قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان، أرادوا أن يسوقوا حديث ((من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)) حتى يفتحوا عليه بالشهادة، فإنهم يخجلون، كما قال أبو حاتم إني لأستحي من الله أن أُذكر أبا زرعة بالشهادة.. فاتخذوا هذه الحيلة بأن يذكروا هذا الحديث ويتدارسوا في أسانيده لعله يذكر الشهادة فيتذكرها فيقولها، فيختم له بذلك، قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان، فارتُج عليه من مهابة أبي زرعة ولم يستطع أن يكمل الحديث، فتبادر أبو حاتم الرازي الحديث وقال حدثنا فلان عن فلان وساق الحديث

قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ)) أخرجه مسلم.

بإسناده بإسناد آخر، ثم أيضًا ارتُج عليه مهابة لأبي زرعة وهو على فراش الموت يحتضر، فأشار إليهما أن أجلساني، فلما أجلساه توقيرًا لحديث رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أن لا يحدث به وهو مضطجع، فقال: حدثنا فلان، عن فلان، عن فلان، عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: ((من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)). قال الإمام الحاكم فخرجت روحه مع الهاء –رحمه الله–.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في الآخرة أي في حياة البرزخ، وهي أول معالم الآخرة، يثبتهم بالجواب على سؤال الملكين منكر ونكير، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فإن كان من أهل التوحيد، من أهل الصدق، من أهل الحق؛ فالله سبحانه وتعالى لا يخذل المؤمن المخلص بل يثبته، فإنه يجيب على تلك الأسئلة؛ ربي الله، دين الإسلام، نبيي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم–.

أما من كان من أهل النفاق، من أهل الشقاق، من الذين ينتسبون للإسلام زورًا وبهتانًا ولا يعملون به؛ فلا يستطيع أن يقول ربي الله، الذي كان في الدنيا يقول ربي الله ثم يشرك بالله سبحانه وتعالى في الاستغاثة، في العبادة، في الدعاء، في الحكم، في التشريع، إلى غير ذلك؛ فإنه لن يستطيع أن يقول ربي الله، الذي يقول ديني الإسلام ثم لا يتحاكم إلى الاسلام بل يتحاكم إلى غير الإسلام فلن يستطيع أن يقول ديني الإسلام، الذي يقول نبيي محمد ﷺ ثم لا يوقر النبي ﷺ، ثم يطعن في النبي ﷺ، ويتكلم فيه بما لا يليق بالنبلاء من سائر البشر، فكيف بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– خير البشر!؛ لن يستطيع أن يقول نبيي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم–، وإنما يقول (ها ها.. لا أدري). فهذا هو الذي يخذله الله سبحانه وتعالى.

وروي -ولم أقف على إسناد معتبر- عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- الخليفة الراشد، أنه لما توفي ودفن رآه عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- في المنام، رأى أن الملكان الأسودان الأزرقان أتوا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- وأجلساه، فما كان منه إلا أن جبذهما إليه وهزهما، وقال لهما من ربكما؟

قال: ((وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)): وهذا من توفيق الله سبحانه وتعالى للعباد، أنه قد يذنب وقد يسرف على نفسه، وقد يشرك بالله سبحانه وتعالى، ثم في آخر حياته يتفضل الله سبحانه وتعالى عليه بالهداية.

ومن الطريف، يحكي لنا البعض من أهل اليمن أنه كان رجل سيد في قبيلته، وكانت القبيلة المجاورة لهم قبيلة يهودية من اليهود الذين يسكنون اليمن، ذلك الرجل اليهودي وهو أيضًا من سادات اليهود عاش ردحًا من الزمن على يهوديته حتى شاخ وهرم وكبر في السن ورق عظمه، بعد ذلك سمع عن الإسلام وأنه هو الدين الحق فانشرح لذلك، فقال ماذا أصنع؟ قال أذهب للقبيلة المجاورة فأسأل عن سيد تلك القبيلة من المسلمين فأذكر له أن يشرح لي عن الإسلام وتفاصيل الإسلام وكيف يدخل المرء في الإسلام إن أحب ذلك، فلما ذهب إليهم وفي مجلس عامر من عوام المسلمين من تلك القبيلة، وكان سيدهم يتوسط ذلك المجلس من عامة المسلمين ومن الدهماء من الذين لا علم لهم في الشريعة وفي الدين، فسأله ذلك اليهودي الهرم الكبير الطاعن في السن، سأله وقال له أنه يريد الدخول في الإسلام، فما كان من ذلك الجاهل سيد تلك القبيلة من المسلمين إلا أن قال له لا لا أنصحك بالدخول إلى الإسلام واثبت على دينك اليهودي والإسلام فيه وفيه، فما كان من اليهودي إلا أن رجع إلى قومه، فسأل من كان حاضرًا في ذلك المجلس سأل سيد تلك القبيلة لماذا قلت له هذا

الكلام؟ قال هو يعيش طوال عمره على المعاصي وعلى الكفر وعلى كذا، ثم آخر شيء يريد أن يدخل إلى الجنة ويزاحمنا في الجنة! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا من جهله ولا حول ولا قوة إلا بالله، كما قال النبي ﷺ: ((قتلوه قتلهم الله)).

الحديث الخامس

عن أم المؤمنين، أم عبد الله عائشة -رضي الله عنها-، قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد)). رواه البخاري، ومسلم.

وفي رواية لمسلم: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رَد)).

***

الشرح: هذا الحديث من الأحاديث التي يدور عليها الإسلام، كما قال الإمام أحمد -رحمه الله- وقبله الإمام الشافعي -رحمه الله رحمة واسعة-، وكما قال ومر معنا من كلام ابن رجب الحنبلي أن هذا الحديث عليه مدار الظاهر أو هو ميزان للأعمال في ظاهرها، وحديث عمر المتقدم في صدر هذه الرسالة هو ميزان للباطن.

عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- أم المؤمنين، أم عبد الله، كنيت بأم عبد الله قيل لأنها أتت بسقط وأسمته عبد الله وهذا لا يصح، وإنما تكنت بعبد الله نسبة لابن اختها أسماء بنت

أبي بكر عبد الله بن الزبير، وكانت تحبه حبًا كثيرًا وهي خالته -رضي الله عنها وأرضاها-، فتكنت به من فرط حبها له.

وخير الأسماء كما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عبد الله وعبد الرحمن.

وهي -رضي الله عنها وأرضاها- من المكثرين في الرواية من حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حيث روت كما قال بعض أهل العلم ربع الشريعة -رضي الله عنها-، مسند عائشة كما قال الإمام الذهبي -رحمه الله- يبلغ ألفين ومئتين وعشرة أحاديث روتها عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والمكثرين من رواية الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على رأسهم أبو هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-، وعائشة -رضي الله عنها-، وجابر -رضي الله عنه-، وأنس -رضي الله عنه-، وعبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، وعبد الله بن عمرو بن العاص، كما قال الإمام النووي عند جمهور المحدثين ينطق ويلفظ بالعاصِ، ضبطه العاصِ وليس العاص كما هو مشهور، وكذلك عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، هؤلاء هم المكثرون من الرواية عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

((من أحدث في أمرنا هذا)): أي في الدين، في شريعة رب العالمين سبحانه وتعالى؛ لأن الدين قد اكتمل، فمن جاء بعبادة جديدة فكأنه يتهم، إما أن يتهم الدين بأنه ناقص، وإما أن يتهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه لم يبلغ كل الدين، فهو بين أمرين أحلاهما مر كما قيل.

فينبغي ألا يعمل إنسان عملًا من الدين إلا ويكون على وفق هدي النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولا يزيد في ذلك من بنات أفكاره، فإن ذلك العمل عند إذ مردود على صاحبه، لو أتى رجل وقال صلِ المغرب أربع ركعات بدل ثلاث ركعات، نقول هذه الصلاة مردودة عليك، وإن كانت نيته خالصة، كما قال عبد الله بن مسعود "كم من مريد للخير لا يدركه"، وإن كانت نيته خالصة في الزيادة في العبادة والتعبد لله سبحانه وتعالى، إلا أنه فقد أحد الشروط قبل العمل وهو متابعة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

النبي ﷺ قال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))، كما جاء عند البخاري ذلك الرجل الذي كان عند عبد الله بن عمر، فعطس، فقال الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فقال عبد الله بن عمر هذا حسن، ولكن ليس هكذا علمنا، وإنما من عطس فليقُل الحمد لله ولا يزد على ذلك.

الصلاة على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أمر محمود، ولكن جعلها ها هنا هذا لم نؤمر به ولم يعلمنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

ذلك رجل كان يتنفل قبل صلاة الفجر بأربع ركعات، فرآه الإمام سعيد بن المسيب –رحمه الله رحمة واسعة–، فنهاه عن ذلك وزجره، فقال له: يا إمام، أو يؤاخذنا الله على الصلاة؟ –أنا أصلي، هذا فعل حسن، أنا أصلي أو يؤاخذنا الله ويحاسبنا الله على الصلاة؟ قال الإمام سعيد: لا، وإنما يؤاخذنا الله على مخالفة السنة.

فلا بد أن يكون العمل موافقًا لهدي رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

الحديث السادس

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمى يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)). رواه البخاري، ومسلم.

***

الشرح: فبين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن من الأمور ما يكون حلالًا بيّنًا لا إشكال فيه ولا مرية فيه ولا يختلف أحد فيه، كسائر الطعام والشراب هذه من المباحات التي لا خلاف فيها، فالأصل في المطعمات الإباحة، فهي من جملة المباحات البينة، ولكن الأصل في العبادات -كما مر معنا من حديث عائشة- التوقيف، أنه لا يصار إليها إلا بدليل عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، أو بقول من أقوال الله سبحانه وتعالى في كتابه.

وبين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن هناك من المحرمات ما يكون بينًا في التحريم ولا يشك فيه أحد.

((وبينهما أمور مشتبهات)): بين المباحات الواضحات، وبين المحرمات الواضحات، كالزنا والسرقة وقتل النفس بغير حق، إلى غير ذلك.

((بينهما أمور مشتبهات)): لتوضيح ذلك نقول الليل والنهار، الليل لا يشك فيه أحد، والنهار لا يشك فيه أحد، ولكن الوقت بين النهار والليل في حال الغروب، وفي حال طلوع الفجر، هذا وقت فيه دلس، هذا وقت مشتبه لا يعلمه كثير من الناس، فأكثر الناس لا يعلمون تفاصيل الدين والأحكام الدقيقة التي جاءت في شريعة رب العالمين، وهذا يبين لك أنه كما قال الله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم]. فإن أطعت أكثر الناس وأخذت الفتوى من أكثر الناس في كل المسائل، سواء كان منها من الواضحات أو من الخفيات، فإنهم سيضلونك، كما قال الله تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام]. فأكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله لأنهم لا يعلمون الأمور المتشابهة التي قد تكون من جملة المباحات أو من جملة المحرمات.

يكون هذا الاشتباه إما عن خفاء الدليل، وإما عن حكم الدليل، إلا لمن جمع بين أمرين: بين علم الدليل، وعلم الواقع.

لا بد أن يعلم الواقع ويعلم الدليل، من علم الدليل ولم يعلم الواقعة لا يصح له أن يفتي في تلك الواقعة، ومن علم الواقعة ولم يعلم الدليل لا يصح له أن يفتي في تلك الواقعة، لأنها من الأمور المشتبهات.

قال: ((ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)): دينه هذا ما يتعلق بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وعرضه هذا ما يتعلق بينه وبين الناس.

إذا وقع في الشبهات قد تخنى على عرضه للناس، قد وقع في أمر وفقًا له سيتكلم عليه الناس، سيقال عنه فلان يفعل كذا وكذا، فلان يأخذ الحرام، فلان يأكل الحرام، ونحو ذلك.

هو لم يقع في الحرام، وإنما وقع في الأمر المشتبه، قد يكون من المحرم وقد يكون من غير المحرم.

وكما قال النبي ﷺ: ((ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام)): إما أنه بما سيؤول إليه، فقد يؤول الوقوع في الشبهات إلى الوقوع في المحرمات، لذلك كانوا يتركون الصغائر مخافة الوقوع في الكبائر، وكما قيل المعاصي بريد الكفر. من يتساهل في ارتكاب الصغائر وفي ارتكاب الكبائر، لعل الأمر يؤول به بعد ذلك إلى الوقوع في الكفر -والعياذ بالله-.

فالذي يقع في الشبهات لعل الأمر يؤول به بعد ذلك إلى الوقوع في الحرام.

وقد يفهم أيضًا من الحديث أن الوقوع في المتشابهات هو [نفسه] وقوع في المحرمات.

ثم ذكر النبي ﷺ مثالًا على ذلك لتوضيح الأمر، وهذا من حسن بيان النبي ﷺ أنه يذكر الأمثال الحسية التي يعرفها الناس لتوضيح الأمور المعنوية من المباحات والمحرمات..

يقول: ((كالراعي يرعى حول الحمى)): هناك حمى لبعض الملوك أو لبعض الأمراء جعلوه لهم ولماشيتهم وحموه وجعلوه حكرًا عليهم، لا يدخل فيه أحد ولا يرتع فيه أحد، الذي يرعى بماشيته حول ذلك الحمى هو لا يدخل ذلك الحمى، ويراعي ألا يدخل من ماشيته شيء لذلك الحمى ما استطاع إلى ذلك سبيلا، سيمكث يوم يومين على ذلك، ولكن بعد ذلك قد يتفلت شيئًا فشيئا وتدخل ماشية ذلك الرجل إلى ذلك الحمى فترتع منه وتأكل منه.. شبه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك بحمى الله سبحانه وتعالى.

((ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه)): المحرمات التي جاء ذكرها في الكتاب وفي السنة هي حمى الله سبحانه وتعالى -ولله المثل الأعلى-، الذي يتجوز ويتوسع في المباحات بعد ذلك قد يسقط في المحرمات -ولا حول ولا قوة إلا بالله-.

كان بعض السلف -رحمهم الله- يتركون ما لا ريبة فيه مخافة أن يسقطوا فيما فيه ريبة، يتركون ما لا شك فيه مخافة أن يسقطوا فيما فيه الشك وما فيه الحرام.

ثم قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)): مثّل الإمام ابن رجب الحنبلي -رحمه الله- لذلك بالملك وجنوده، القلب هو الملك، والأعضاء هم جنود القلب، إن أمر الملك أطاع الجنود، وإن نهى الملك انتهى الجنود، كذلك القلب مع الأعضاء، إذا صلح القلب صلحت الأعضاء، وإذا فسد القلب فسدت الأعضاء.

وهذا يبين لك أن الظاهر والباطن متلازمان ولا ينفكان، هذا هو الأصل، لا يفترق الباطن عن الظاهر إلا في حالتين اثنتين:

الحالة الأولى التي يفترق فيها الظاهر عن الباطن: الإكراه. قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل]. فهو يظهر الكفر ويبطن الإيمان.

أما الحالة الثانية: فهي عكس هذه الحالة، أن يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر -والعياذ بالله-، وهذه هي حالة النفاق -أعادنا الله وإياكم من النفاق-.

الحديث السابع

عـن أبي رقيـة تمـيم بـن أوس الـداري -رضـي الله عنـه-، أن النـبي ﷺ قـال: ((الـدين النصـيحة)). قلنـا: لمـن؟ قـال: ((لله، ولكتابـه، ولرسـوله، ولأئمـة المسـلمين وعامّتهم)). رواه مسلم.

***

الشرح: رواه مسلم مسندا، والبخاري معلقا.

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

((الدين النصيحة)): وإنما المعني بالدين هو الدين الإسلامي الحنيف. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران].

وهذا مبتدأ وخبر ((الدين النصيحة))، وإذا كان المبتدأ معرفًا والخبر معرفًا فهذه صيغة من صيغ الحصر، فأكد ودلل على أهمية النصيحة من الدين بأن جعل وساق ذلك السياق، فقال ((الدين النصيحة))، كما قال النبي ﷺ: ((الحج عرفة)).

فالنصيحة من دين الإسلام التي أمرنا الله سبحانه وتعالى وأمرنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم بها-، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران].

قال بعض العارفين: تأمل كيف أن الله سبحانه وتعالى قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله؛ إذ بدوامهما -بدوام الأمر بالمعروف والنهي على المنكر- يدوم ويستمر الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ويقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث المتفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه مرفوعًا- قال: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)).

ويقول جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه وأرضاه- كما روى ذلك الإمام مسلم عنه، قال: "بايعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.." وليس فحسب، بل قال: "والنصح لكل مسلم".

وكما يقول الفقهاء: لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة والبيان.

فالنصيحة أمر مهم من أمور الدين، وهي فرض على الكفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الآخرين. هذا قول جماهير العلماء -رحمهم الله- في شأن النصيحة وفي شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((المؤمن مرآة أخيه)) أن يبين لأخيه ما يقع فيه ذلك الأخ من المعاصي أو من الأمور الخاطئة التي جاء الكتاب والسنة على تخطئتها، فهو يبين له كالمرآة حينما تبين لك صورتك الحقيقية ولا تغشك، فإن المسلمين نَصَحَة وإن المنافقين غششة، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ليس منّا من غشّنا)). كما رواه الامام مسلم. وفي رواية: ((من غش فليس منّا)).

الحديث الثامن

عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، أن رسول الله ﷺ قال: ((أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)). رواه البخاري، ومسلم.

***

الشرح: هذا الحديث يبين لك أن الناس على ثلاث طوائف:

القسم الأول: هم الكفار، وهؤلاء هم المأمور بقتالهم ((أُمرت أن أُقاتل الناس)) كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والذي أمره هو الله سبحانه وتعالى كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة].

الصنف الثاني من الناس: هم المؤمنون، وهؤلاء الذين أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالكف عن قتالهم.

والأصل في دم المسلم ومال المسلم وعرض المسلم الحرمة، كما أن الأصل في دم الكافر وعرض الكافر ومال الكافر الإباحة، ولا يعصم إلا بأمان أو إيمان، كما قال -صلى الله عليه

وآله وسلم- في صحيح مسلم: ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه وحسابه على الله)).

مفهوم المخالفة: أن من لم يقل لا إله إلا الله، أو قال لا إله إلا الله ولم يكفر بما يعبد من دون الله؛ لم يحرم ماله ولم يحرم دمه.

ها هنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)). "حتى" هنا للغاية، أي أن أقاتلهم حتى يشهدوا، أي إلى أن يشهدوا.

فالغاية هي التوحيد، إن وحدوا الله سبحانه- وتعالى فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، كما جاء في حديث عليّ -رضي الله عنه- الذي رواه الإمام مسلم.

فمفهوم المخالفة في هذا الحديث أن من لم يشهد الشهادتين ولم يُقم الصلاة ولم يُؤتِ الزكاة، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال عن ذلك ((أُمرت أن أُقاتل الناس)).

فالأصل في الكفار الإباحة، والأصل في أهل الإسلام التحريم، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث المتفق عليه من حجة الوداع، حيث قال: ((ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)). والمخاطب أهل الإيمان، خاطبهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بتحريم أموالهم وتحريم دمائهم وتحريم أعراضهم.

الصنف الثالث: المنافقون. وهؤلاء الذين قال النبي ﷺ فيهم في هذا الحديث: ((وحسابهم على الله)).

هم يظهرون لنا أنهم من أهل الإيمان، ولا يرتكبون شيئًا من نواقض الإسلام، فنحن نعاملهم بالظواهر، كما قال الإمام النووي -رحمه الله-: "أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر والله يتولى السرائر". نحن ما أُمرنا أن نشق عن قلوب الناس كما جاء في حديث أسامة -رضي الله عنه وأرضاه-.

جاء المستشرقون في الأزمن المتأخرة فدرسوا الإسلام للطعن في الإسلام مما جاء في الإسلام، فقالوا إن الإسلام قد انتشر بالسيف وإن الإسلام دين القتال، فقام بعض الناس -من أصحاب النوايا الطيبة- يريدون أن يدفعوا عن الإسلام، يريدون أن يقفوا مانعًا ضد أولئك المستشرقين، فقالوا لا، الإسلام لم ينتشر بالسيف، والإسلام ليس دين القتال، والإسلام ليس دين السيف، والإسلام ليس دين الجهاد، وليس في الإسلام جهاد طلب، بل ليس في الإسلام إلا جهاد الدفع.

وعلى رأس أولئك جمال الدين الأفغاني، ثم بعده محمد عبده، ثم بعده من أخذ عنه وتأثر به كالشيخ سيد سابق -رحمه الله- صاحب كتاب [فقه السنة]، في هذا الكتاب الماتع كتاب [فقه السنة] قال بهذا الأصل وأن الإسلام ليس فيه جهاد طلب وإنما فقط في الإسلام جهاد دفع، إذا صال علينا الأعداء ندفعهم فقط، وليس في الإسلام جهاد طلب.

كذلك على رأس هذه المدرسة من المعاصرين وعلى رأس المنافحين عنها والمنظرين لها الدكتور يوسف القرضاوي، فإنه يقول بنفي جهاد الطلب وأن ليس في الإسلام إلا جهاد الدفع فحسب.

وهذا الحديث الذي مر معنا هو غصة في حلوق جميع أولئك ((أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)).

كيف دخل الناس في دين الله أفواجا؟ هل دخلوا إلا بالقتال! كما قال الله تعالى المتعال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، ما قال الله تعالى إذا دخل الناس في دين الله أفواجا وجاء نصر الله والفتح، بل قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إذا جاء السيف، ودخل الناس في دين الله أفواجا. فأولئك عكسوا وانتكسوا وارتكسوا.

كيف دخل أهل جزيرة العرب في الإسلام؟ كيف عادوا إلى الإسلام بعد أن ارتدوا عنه في زمن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-؟ كما قال: إما حرب مجلية وإما سلم مخزية.

وأمر أبو بكر خالدًا -رضي الله عنه وأرضاه- أن ينكل فيهم، فجمع منهم أُناسًا في حظيرة حرّقها عليهم بالنار، ومنهم من قذف بهم من شواهق الجبال، إلى غير ذلك، حتى عادوا إلى حظيرة الإسلام التي خرجوا منها.

كيف دخل الإسلام في المغرب الإسلامي برمته؟ كيف دخل الإسلام إلى تونس؟ إلا بهذا السيف الذي كان رحمة للعالمين.

رحمة للعالمين على الوجهين: أن يدخلوا في دين الإسلام، وأن يكف بأس من يناوئ الإسلام ويعادي الإسلام حتى لا يزيد في طغيانه، فيكون بعد ذلك في الدركات السفلى في نار جهنم، فبقتله كان دون ذلك.

قال –صلى الله عليه وآله وسلم– في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وجوده شيخ الإسلام ابن تيمية، وحسنه الحافظ العراقي، وصححه الشيخ الألباني –رحمه الله– والشيخ أحمد شاكر –رحمه الله–، قال: ((بُعثتُ...)) بماذا قال؟ هل قال بالسلام؟ هل قال بأجنحة الحمام؟! قال: ((بُعِثتُ بالسيفِ بينَ يدَي الساعةِ حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وجُعِلَ رزقِي تحتَ ظلِّ رمحِي، وجُعِلَ الذلُّ والصغارُ على مَن خالف أمرِي، ومَن تشبَّه بقومٍ فهو منهم)).

وروي عنه ﷺ –ولم أقف لذلك على إسناد– أنه قال: ((أنا الضّحوك القَتّال)).

قال العماد ابن كثير –رحمه الله–: أي ضحوك لأوليائه، قتّال لأعدائه.

وروي في الكتب السابقة كما ذكر ذلك الإمام ابن القيم، والإمام ابن رجب –رحمه الله–، وشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– أنهم قالوا عن علامات النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ووصف النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– هو الضحوك القتال.

وقالوا أيضًا في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل في وصف النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ومن علاماته: يُبعث بيده قضيب الأدب. أي السيف.

وتأملوا في سورة محمد ﷺ، هي هي سورة القتال كما ذكر غير واحد من المفسرين كالقرطبي وغيره، تأملوا هذا التلازم بين القتال وبين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، حيث سميت سورة في القرآن بسورة القتال، وهي هي سورة محمد –صلى الله عليه وآله وسلم–.

وكما أن في القرآن سورة باسم القلم، كذلك في القرآن سورة باسم الحديد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

فلم يكتفِ الله سبحانه وتعالى بإنزال البينات وإنزال الكتاب، بل وأنزل كذلك الحديد، لذلك هذا جابر بن عبد الله –رضي الله عنه وأرضاه– أخذ في أحد يديه المصحف وفي الأخرى السيف، وقال أمرنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أن نضرب بهذا من عدل عن هذا.

من خرج عن تعاليم هذا أُمرنا أن نضرب هامه بالسيف كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم–.

فالملخص كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم– فيما رواه الإمام أحمد: ((أنا نبي الرحمة...)) وليس فقط، مجمل الناس يقفون عند ذلك.. ((أنا نبي الرحمة ونبي الملحمة)).

فملخص الطريق وملخص السبيل هو التوحيد والحديد، هذا حتى الصم يعرفونه، كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)).

الحديث التاسع

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: أبو هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- اختلف في اسمه على أسماء كثيرة، أشهر تلك الأقوال أنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي -رضي الله عنه وأرضاه-، أبو هريرة هو أكثر الصحابة رواية عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا على الرغم من تأخر إسلامه، أسلم -رضي الله عنه- قبل وفاة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأربع سنوات، أسلم بعد خيبر، أسلم -رضي الله عنه- وكان حريصًا على طلب العلم، وطلب من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يدعو له بالحفظ وعدم تفلت العلم من رأسه، فكان بعد ذلك من أوعية العلم، وبزّ أقرانه -رضي الله عنه وأرضاه-، حيث أنه يقول: ((إِنَّ إِخْوَانِي مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَرَضِيهِمْ، وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا))[١].

---

[١] رواه مسلم.

فنقل لنا عنه عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أحاديث كثيرة، حتى قيل إن مسند أبي هريرة –رضي الله عنه وأرضاه– يبلغ خمسة آلاف وثلاثمئة وأربعة وسبعين حديثا.

نأخذ من هذا الحديث: أن الأعمال تنقسم إلى قسمين: ترك، وفعل. الفعل إيجابي، والترك سلبي.

إما أنك تفعل ما أُمرت به، وإما أنك تترك ما نهيت عنه، ففي الفعل تحتاج إلى استطاعة لأداء تلك الأفعال، كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران]. فالحج فعل، أداء فعل، فلا بد من الاستطاعة حتى نقوم بالحج، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن] فالفعل منوط بالاستطاعة، لا بد أن نستطيع ذلك الفعل فنقوم به.

وأما الترك فلا يحتاج إلى استطاعة، كما ذكر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ها هنا ((فأتوا منه ما استطعتم)) في الفعل، ولم يقل ذلك في الترك.

((فاجتنبوه)): مبالغة في الترك، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل]. أي أن نبالغ في ترك الطاغوت.

فالترك ترك ما نهانا الله سبحانه وتعالى عنه، ما نهانا عنه رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، نبالغ في تركه، والترك لا يحتاج منا إلى استطاعة، لا يقول قائل إني لا أستطيع أن أترك الزنا، لا يقول قائل إني لا أستطيع أن أترك الخمر، لا يقول قائل إني لا أستطيع أن أترك الدخان، ونحو ذلك، بل الترك لا يحتاج إلى استطاعة، وإنما الذي يحتاج إلى استطاعة هو الفعل، الأمر الإيجابي هو الذي يحتاج إلى استطاعة. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر].

ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مسألة غزيرة، ألا وهي: إنما أهلك الذين من كانوا قبلنا (وهم اليهود) أنهم يكثرون الأسئلة على أنبيائهم، الأسئلة التي لا طائل منها، كقصتهم مع نبي الله موسى في مسألة ذبح البقرة، ما لونها، إن البقر تشابه علينا، وهكذا وهكذا، حتى ضيق عليهم الواسع.. فهم إنما أحد أسباب هلاكهم كثرة سؤالهم لأنبيائهم، وكثرة إيراد المسائل على أنبيائهم.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خطب في الصحابة ذات يوم كما جاء في الصحيحين، فقال: ((أيها الناس، إن الله عز وجل قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم))، ثم قال: ((ذروني ما تركتكم))[١]، و ((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))[٢]. وعند ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة].

وقيل نزلت هذه الآية في ذلك الرجل الذي قام وسأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن أبيه (عن أبي الرجل)، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: ((أبوك فلان)) [٣].

فَذُمّ التقعر في المسائل وفي السؤال عن المسائل التي لا طائل منها ولا عمل يرجى منها، والله تبارك وتعالى أعلم.

---

(١) اللفظ لأحمد.

(٢) رواه الدارقطني وغيره.

(٣) أخرجه الطبري.

الحديث العاشر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة]، ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمُدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ. يا ربِّ. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذّي بالحرام، فأنّى يُستجاب له؟)). رواه مسلم.

***

الشرح: في هذا الحديث رد على الميكافيليين، أولئك الذين يزعمون أن الغاية تبرر الوسيلة، فإذا كانت الغاية حميدة فلا يضر أن تصل إليها بأي وسيلة مشروعة أو غير مشروعة، وهذا ليس في دين الله، بل في دين الله ((إن الله طيب لا يقبل إلا طيّبا))، فإذا كانت الغاية حميدة فلا بد أن تكون الوسيلة إلى تلك الغاية حميدة أيضا، إذا كانت الغاية مشروعة لا بد أن تكون الوسيلة إليها مشروعة أيضا، فإن الغاية لا تبرر الوسيلة، وكما قيل:

كَمُطعِمةُ الأيتامِ من كدِّ فرجها   لكِ الويلُ لا تزني ولا تتصدقي

امرأة تسمع بحديث رسول الله ﷺ ((أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين)). وأشار بإصبعي السبابة والتي تليها.. فأحبت أن تنفق على اليتيم وتكفل اليتيم، فذهبت تزني -والعياذ بالله-

وتتكسب من فرجها، لأن الغاية حميدة! هذا هو مفهوم أولئك الذين يقولون إن الغاية تبرر الوسيلة.. في الإسلام الغاية لا تبرر الوسيلة.

رجل يريد أن يبني مسجدًا وليس له مال، فهل يذهب يسرق من الناس ثم يبني ذلك المسجد؟ لا يجوز له ذلك ((إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا))، فإن الغاية لا تبرر الوسيلة.

رجل يريد تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى في الأرض، فيدخل في البرلمانات التشريعية، البرلمانات العلمانية، التي تشرع من دون الله ما لم يأذن به الله، يقول لكي يحكم الشريعة!

إن الغاية لا تبرر الوسيلة، إذا كانت الغاية حميدة فينبغي أن تكون الوسيلة إليها حميدة، ولا ينبغي أن تكون الوسيلة إليها غير شرعية أو غير مشروعة، بل لا بد أن تكون الوسيلة أيضًا مباحة أو مشروعة.

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وهذا من إكرام المؤمنين، ولدفع التوهم أن أمر الله سبحانه وتعالى بالأكل من الطيبات واجتناب الخبائث حكرًا على المرسلين فقط، وأنه حكم خاص بالمرسلين فقط، بل كذلك أمر سائر المؤمنين أن يقتدوا بالمرسلين في عدم الأكل من الخبائث، بل يأكلوا من الطيبات، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام].

ثم ضرب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– مثالًا على ذلك، فقال: ((الرجل يطيل السفر)): ويبين من ذلك أن السفر من مظان إجابة الدعوة، المسافر دعاؤه مستجاب.

ومواطن إجابة الدعوة كثيرة، منها: السفر، ومنها الوقت بين الأذان والإقامة، ومنها المطر، ومنها في أثناء السجود، ومنها آخر ساعة من يوم الجمعة، ومنها في الثلث الأخير من الليل، ومنها دعوة المظلوم، ومنها عند التقاء الصفين في الجهاد في سبيل الله، وهكذا.

هذا الرجل مع أنه في موطن من مواطن إجابة الدعوة إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يستجب له؛ لأن مأكله حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام.

فالأكل الحرام والكسب الحرام مظنة لعدم إجابة الداعي، والعكس صحيح، الذي يطيب من مأكله ومشربه مظنة لإجابة دعوته، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي وهو ضعيف الإسناد، عن سعد بن أبي وقاص أنه سأل النبي ﷺ أن يدعو الله أن يكون من المستجابين في دعائهم، أن يستجيب الله سبحانه وتعالى له دعاءه، قال: ((يا سعد، أطب مطعمك تجب دعوتك)).

تأملوا في قول النبي ﷺ: ((يمُدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ)): يمد يديه إلى أين؟ إلى السماء، وفي ذلك إثبات علوّ الله سبحانه وتعالى كما قال الإمام الهمذاني -رحمه الله-، واحتج بذلك على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني -رحمه الله-، حيث أنه كان يؤول الصفات وكان في أحد مجالسه يتكلم عن استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه، ويؤول ذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس في السماء، لم يأخذ بظاهر الآية في استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه فوق السماوات العلا، فلما تكلم أبو المعالي في ذلك قال الإمام الهمذاني: دعني من كل ذلك، وتعالَ إلى المسائل الضروريات. أي من الفطر التي لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان، قال ما هي؟ قال أرأيت الداعي، أرأيت العارف بالله إذا قال "يا رباه، يا رباه" إلى أين يتوجه بكليته، إلى أين يرفع يديه؟ إلى يمنة أم يسرة أم أمام أم إلى العلو؟ قال: يتوجه بكليته إلى العلو.

وهذا مما لا مناص منه للذين ينفون ويؤولون علو الله سبحانه وتعالى.

وهذه القصة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مجموع الفتاوى في المجلد الرابع، وذكرها الإمام الذهبي -رحمه الله- في كتاب العلو، وصحح إسنادها الشيخ الألباني.

يقول بعد ذلك الإمام الجويني -رحمه الله-: حيّرني الهمذاني، حيّرني الهمذاني.

الحديث الحادي عشر

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سِبط رسول الله ﷺ وريحانته -رضي الله عنهما- قال: حفظت من رسول الله ﷺ: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)). رواه الترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

***

الشرح: الحسن هو سبط النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والسبط هو ابن البنت، كما أن الحفيد هو ابن الابن.

الحسن هو ريحانة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وكما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الحسن والحسين: ((سيدا شباب أهل الجنة))، وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الحسن فيما رواه الإمام أحمد في مسنده: ((إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)).

فالحسن من سادات المؤمنين، ومن أجلاء أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ومن أهل بيته ومن عترته.

حدّث عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)): وهذا هو الورع.

وفرق بين الورع والزهد، الزهد أن يترك الإنسان ما لا فائدة فيه يوم القيامة، وأما الورع فأن يترك الإنسان ما يخشى من مضرته يوم القيامة. وما جاء في هذا الحديث هو الحث على الورع.

كان النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كما جاء في صحيح مسلم أنه يجد التمرة ساقطة على فراشه فيرفعها إلى فيه، ثم يتذكر أنها قد تكون من تمر الصدقة فيمتنع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– عن أكلها ورعًا عن ذلك.

فالورع جاء الكتاب والسنة بالحث عليه، فينبغي أن يكون الإنسان وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه المتشابهات وكثرت فيه الفتن الظاهرة والباطنة، كثرت فيه فتن الشبهات وفتن الشهوات، كل ذلك موجود في هذا العصر وبكثرة كثيرة جدًا، ينبغي على الإنسان عندئذ أن يمتنع وأن يتورع عن ما فيه شبهة من حرام أو ما قد يتوهم أنه يؤدي إلى حرام؛ حفظًا لدينه، فإن أعظم ما يملكه ورأس ماله هو الدين، فينبغي أن يحافظ على رأس المال بكل ما يستطيع، ومن ذلك الورع والتورع في كل ذلك.

الإمام الترمذي –رحمه الله– يقول عن هذا الحديث حديث حسن صحيح، ولم يعرف عن أحد من العلماء أنه استخدم هذا المصطلح قبل الإمام الترمذي، إلا الإمام الترمذي –رحمه الله–.

قال بعض أهل العلم في سبب قوله عن بعض الأحاديث أنها حسن صحيح: أنه شك وأنه متردد في الحديث بين الحسن والصحة، وهذا بعيد عن أمثال الإمام الترمذي الذي هو من العلماء الجبال الجهابذة الذين لا يشق لهم غبار في علم الحديث وفي علم العلل وفي علم الرجال.

القول الثاني: قيل أنه قد ورد الحديث بطريقين أو أكثر، بعضها حسن وبعضها صحيح، طريق حسن وطريق صحيح.

وقيل أيضًا في معنى قول الإمام حسن صحيح: أنه أراد التأكيد والتوكيد في ذلك أنه حسن صحيح، يؤكد على قبول هذا الحديث بهذه اللفظة.

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)). حديث حسن، رواه الترمذي وغيره.

***

الشرح: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)): ليس في الأمور المتعلقة بالدين، ولا الأمور المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن ذلك مما يعنيه وليس مما لا يعنيه.

أما الحديث فمفهومه في الآداب ومفهومه في الأمور الدنيوية أنه يترك ما لا يعنيه، يترك مثلًا التوسع في المباحات، ويترك الفضول والتطفل على الناس، هذا هو المعني في الحديث، وليس المعني أن يترك الأمر المعروف والنهي عن المنكر فيما يقع فيه الآخرين من منكرات يقول ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))، بل هذا من شين إسلام المرء تركه ما لا يعنيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما ذكر أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- فقال: "يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة] إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيروه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه".

فلا بد أن نأخذ على يد الظالم، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((انصر أخاك ظالما أو مظلوما)) فيما صح عنه، فسأل الصحابة وتعجب الصحابة حيث أن هذه العبارة كانت موجودة وهذا المفهوم كان موجودًا عند أهل الجاهلية "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: ((تمنعه من الظلم))[١].

فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يفهم منه أننا لا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر ونترك الناس يفعلون ما يشاؤون دون نكير ودون نصيحة ودون موعظة بالحكمة وبالموعظة الحسنة، ليس هذا هو المراد من هذه الآية، بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

---

[١] صحيح البخاري.

استدل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بقول الله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ على أن من الهداية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنك بعد ذلك إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ولم يستجب الناس وبقوا في ضلالتهم عند ذلك لا يضرك ذلك شيئا.

فأنت النتائج ليست عليك، بل عليك الأخذ بالأسباب وبذل ما أمرت به، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، قال: ((فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد))، يا ترى هل ذلك النبي قصر في دعوته؟! هل ذلك النبي لم يدعُ إلى الله بطريقة شرعية؟! حاشا وكلا، بل إنه دعا إلى الله سبحانه وتعالى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يترك الناس دون بينة ودون بلاغ، ولكنهم لم يستجيبوا، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

فإذن ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي إذا نصحتم وبينتم وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، بعد ذلك إذا لم يستجيبوا لكم فلا يضركم ذلك شيئا.

كذلك في هذا الحديث ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)): لا يراد به ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما يراد به ترك التوسع في المباحات وترك فضول الأمور والتطفل على الناس.

كما روى الإمام ابن الصلاح -رحمه الله- عن محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه، قال: جماعُ آداب الخير وأزمته تتفرَّع من أربعة أحاديث: قَول النَّبِي ﷺ: ((من كَانَ يُؤمن بِاللَّه وَالْيَوْم الآخر فَلْيقل خيرا أَو ليصمت))، وَقَوله ﷺ: ((من حسن إِسْلَام الْمَرْء تَركه مَا لَا يعنيه))، وَقَوله للَّذي اختصر لَهُ فِي الْوَصِيَّة: ((لَا تغْضب))، وَقَوله: ((الْمُؤمن يحب لِأَخِيهِ الْمُؤمن مَا يحب لنَفسِهِ)). وَالله أعلم".

الحديث الثالث عشر

عـن أبي حمـزة أنـس بـن مالـك -رضـي الله عنـه- خـادم رسـول الله ﷺ، عـن النـبي ﷺ قـال: ((لا يـؤمن أحـدكم حـتى يحـب لأخيـه مـا يحـب لنفسـه)). رواه البخـاري ومسلم.

***

الشرح: أنس بن مالك -رضي الله عنه وأرضاه- خدم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عشر سنين، وما بالكم بمن صاحب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- منذ نعومة أظفاره، وصاحبه وخدمه وكان معه في الحل والترحال، يعرف خواص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، يرشده النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وينشئه على عينيه، ماذا سيكون بعد ذلك إلا عالما، معلما، مقتفيًا لسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الظواهر وفي البواطن، في كبائر الأمور وفي صغائر الأمور، في كل دقيق وفي كل جليل.

قال وحدث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((لا يؤمن أحدكم)): وهذا ليس نفيًا لأصل الإيمان، بل هو نفي لكمال الإيمان، فلا يفهم من هذا الحديث أن الذي لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه هو من جملة الكافرين، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، فإن عدم الحب للإخوان ما نحب لأنفسنا هو من علامات نقص الإيمان.

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)): من الخير، يحب لإخوانه، يحب لغيره ما يحب لنفسه.

وكما جاء في بعض طرق الحديث وفي بعض روايات الحديث: ((أتحب الجنة؟ قال: قلت: نعم. قال: فأحب لأخيك ما تحب لنفسك)). أي أنك تحب أن تنجو من عذاب الله سبحانه وتعالى، تحب أن تفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، بجنة الله سبحانه وتعالى؛ فكذلك لا بد أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك من الجنة والفوز بها والنجاة من النار، فتدعوهم إلى الخيرات، وتنهاهم عن الشر وتنهاهم عن المنكر، فهذا متضمن لحب الخير للغير، وأعظم خير هو الإسلام، أعظم خير هو الإيمان، أعظم خير رضا الرحمن سبحانه وتعالى.

فيستفاد من هذا الحديث أن الذي لا يحب لغيره ما يحب لنفسه، هذا من الأنانية التي ذمها الإسلام، والتي حث على عكسها، حث على أن يحب المسلم لأخيه ما يحبه لنفسه.

وكما مر معنا أن هذا الحديث هو أحد الأحاديث التي تقوم عليها الآداب والأخلاق الفاضلة التي جاء بها الإسلام، كما ذكر الإمام ابن الصلاح عن الإمام محمد بن أبي زيد -رحمه الله-.

الحديث الرابع عشر

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: بيّن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث العظيم المتفق عليه المخرج في الصحيحين أن الأصل في دم المسلم هو الحرمة، ولا يجوز أبدًا أن يراق دم امرئ مسلم بغير حق إلا في هذه الأمور الثلاث، وما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين، لا يزول بالشك، إذا ثبت إسلامه بيقين فهو محرم الدم محرم المال محرم العرض، لا يُصار إلى الإباحة إلا بيقين.

ومن هذه الأمور اليقينة التي جاءت في الكتاب والسنة وبيّنها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث، قال أولًا: ((الثيّب الزّاني)): الثيّب هو الذي وطأ امرأة بالحلال بعقد حلال.

الرجل حينما يتزوج أو المرأة المتزوجة، بعد ذلك لو ارتكب أحدهما فاحشة الزّنا -والعياذ بالله- فحكمه هو الرجم -والعياذ بالله-، يعذب جميع جسده بالحجارة لأن الجسد كله يتلذّذ في تلك المعصية ألا وهي فاحشة الزنا -أعاذنا الله وإياكم وسائر المسلمين منها-، وهذا هو أشد حكم في الإسلام.

ورجم الزّاني المحصن جاء أولًا في كتاب الله، لكنه مما نسخ تلاوة وبقي حكما، كان مما نزل من القرآن: (والشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما البتة)، ثم نسخت هذه الآية تلاوة - لأن النسخ إما نسخ تلاوة ويبقى الحكم، وإما ينسخ الحكم وتبقى التلاوة، وإما ينسخ الحكم والتلاوة، فحكم الزّاني المحصن وهو الرجم جاء في الآية المنسوخة تلاوةً الباقية حكمًا، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه: ((خُذُوْا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِئَةٍ، وَنَفْيُ سَنَةٍ؛ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِئَةٍ، وَالرَّجْمُ)). وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((اغدُ يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها)).

والبكر الذي لم يتزوج بعد، إن زنا فحده الجلد مئة جلدة.

فالزنا أمره عظيم جدًا في الإسلام، وهو يتفاوت في الإثم وفي عظم ذلك الإثم، فهناك زنا الشاب، وهذا محرم وهو من كبائر الذنوب كما ذكر ذلك الإمام الذهبي -رحمه الله- في كتاب [الكبائر]، وهناك زنا أعظم من ذلك، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ، قالَ أبو مُعاوِيَةَ: ولا يَنْظُرُ إليهِم، ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: شيخ زانٍ...))، فالشيخ الكبير في السن حينما يزني هذا إثمه أعظم من الشاب الزاني؛ لأن الشاب هناك غريزة ودافع يدفعه للزنا -وهذا لا يبرر الزنا-، ولكن إثمه أخف من إثم الشيخ الزاني.

وهناك إثم في الزنا أعظم من إثم الشيخ الزاني ألا وهو كما جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم، أنه سأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: ((أن تجعل لله ندًا وهو خلقك))، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: ((ثم أن تقتل

ولدك، تخاف أن يطعم معك))، قلت: ثم أي؟ قال: ((ثم أن تزاني بحليلة جارك))[١]. أي زوجة جارك فهذا إثمه أعظم من الأول.

وهناك نوع من الزنا أعظم من كل هذه الأنواع، ألا وهو الزنا بزوجة المجاهد كما جاء عن الرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– في الحديث الذي رواه مسلم، أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: ((حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عمله ما شاء. فما ظنكم؟)).

وإنما يثبت الزنا بشهادة أربعة عدول من رجال المسلمين، يشاهدون ذلك الفعل بأم أعينهم، كالميل في المكحلة وكالرشاء في البئر.

وهذا قلما يحصل، قلما يثبت الزنا بشهادة العدول الأربعة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: لم يثبت الزنا قط بشهادة الشهود. وهذا على حسب علمه واطلاعه –رحمه الله رحمة واسعة–، وعدم العلم بالشيء لا يستلزم العلم بعدمه.

والأمر الآخر الذي تثبت به تلك الجريمة الاعتراف، وكما قيل الاعتراف سيد الأدلة، كما جاء ذلك في حديث ماعز –رضي الله عنه وأرضاه–.

وكيفية قتل الزاني المحصن الرجم بالحجارة حتى يموت.

ومن فروع هذه المسألة: حكم اللواط:

---

[١] اللفظ للبخاري.

وهو فعل قوم لوط، أن يفعل الرجل بالرجل -عياذًا بالله-، وهي هذه الفاحشة التي ظهرت وانتشرت واشرأبت في قوم لوط، فخسف الله سبحانه وتعالى بهم.

هذه الجريمة جاء من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، كما رواه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي وغيرهم، عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به)).

أجمع الصحابة -رضوان الله عليهم- على قتل من صنع هذا الصنيع وقام بفعل قوم لوط، ولا يشترط فيه الإحصان، بل يشترط فيه أن يكون بالغًا عاقلًا.

ثم اختلفوا بعد ذلك في كيفية قتله، فمنهم من ذهب إلى قياس ذلك بالزاني المحصن وأنه يرجم بالحجارة، ومنهم من ذهب إلى أنه يقتل بالسيف، ومنهم من ذهب إلى أنه يحرق بالنار، وهذا الذي ذهب إليه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-، ومنهم من ذهب إلى أنه يُذهب به إلى أرفع شاهق في البلد فيرمى من هنالك ويتبع بالحجارة، كما فعل الله سبحانه وتعالى بقوم لوط.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الأمور التي يباح فيها دم المسلم: ((والنفس بالنفس)): وهذا هو القصاص، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة].

ففي القصاص حياة للأمة، حياة للمجتمع، وكما قالت العرب القتل أنفى للقتل القتل. حينما يقتل شخصًا واحدًا لأنه قتل بغير حق، يردع الباقون، يردع من عزم على القتل، لأن مصيره سيكون كذلك المصير الذي يُقتل قصاصا.

وكما قيل من أمن العقاب أساء الأدب، إذا علم أنه لو قتل سيسجن ثم يدفع من المال ويخرج، فسيتساهل في القتل بغير الحق -والعياذ بالله-.

والقصاص إنما نعني به من قتل مسلمًا بغير حق، لأنه لا يقاد مسلم بكافر أبدا، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- الذي أخرجه البخاري في صحيحه: ((لا يقتل مسلم بكافر)).

وكل ما روي أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قتل وقاد مسلم بكافر لا يصح البتة، كحديث أبي البيلماني الذي ضعفه الإمام أحمد وابن المنذر والدارقطني وغيرهم -رحمهم الله رحمة واسعة-.

ولا يقتل على الصحيح الوالد بالولد، لو قتل الوالد ولده لا يقتل به على الصحيح، كما جاء في السنن من حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((لا يقاد الوالد بالولد))، لأن الوالد هو أصل حياة الولد، فلا يكون الولد أصل وسبب موت والده.

ولكن ذهب المالكية إلى أنه إذا قتله بالسكين وذبحه فيقاد به، أما إذا قتله بالسيف أو نحو ذلك فلا يقاد به.

ثم نقول: كيف يكون القصاص إذا قتل القاتل نفسًا بريئة بغير حق، كيف يقاد؟ هل يقتل بالسيف، أم يقتل بمثل ما قتل به ذلك المقتول؟

الصحيح من أقوال جماهير أهل العلم: أنه يقتل بمثل ما قتل به، ما لم تكن تلك الطريقة محرمة لعينها، فيراعى المثل في القتلة، كما جاء في البخاري من تلك المرأة التي قتلها يهودي، رَضَّ رأسها بين حجرين وأُدركت قبل أن تموت، فقيل لها: من فعل بك هذا؟ فلان فلان فلان حتى ذكروا اليهودي، فأشارت أن نعم، يعني: أنه هو الذي قتلها، فأخذوا اليهودي فاعترف، فأمر النبي ﷺ بالعدل: "أن يرض رأسه بين حجرين".

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البيهقي -رحمه الله-: ((ومن حرق حرقناه، ومن غرّق غرّقناه)).

وما جاء في الصحيحين من حديث العرنيين، لما أتوا المدينة واجتووا تلك الإبل وساقوها وسرقوها، وقتلوا راعيها، ومثلوا به قطعوا يديه وسملوا عينيه، فصنع النبي ﷺ بهم مثل ما صنعوا فيه، قطع أيديهم وسمل أعينهم بالنار وتركهم في الحرة يستسقون ولا يسقون حتى ماتوا.

فيراعى في القصاص المثلية لعموم الآيات الدالة على ذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل].

ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حالة أخرى يباح فيها القتل: ((والتارك لدينه المفارق للجماعة)): أي المرتد، والمفارق للجماعة صفة له.

من ارتد فقد فارق جماعة المسلمين، ولا يناط قتله بأنه إذا حمل السيف على المسلمين، بل من ارتد فقد فارق جماعة المسلمين وقد حل دمه للمسلمين، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الذي رواه الجماعة إلا مسلما، قال: ((من بدل دينه فاقتلوه)).

وهناك رد مغلظة، وهناك ردة مجردة:

الردة المغلظة: لا يستتاب صاحبها.

أما الردة المجردة: فيستتاب، وتقام عليه الحجة، فإن تاب وإلا ضرب رأسه.

وفي مسألة الردة وقتل المرتد لا يفرق في ذلك بين الرجل وبين المرأة المرتدة، المرأة المرتدة حكم فيها جماهير أهل العلم من المالكية والشافعية والحنابلة بالقتل، وأنها كالرجل، لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((النساء شقائق الرجال)). فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يفرق بين المرأة والرجل في حد المرتد، فقال ((من بدل دينه فاقتلوه))، سواء كان ذلك المبدل من الرجال أم من النساء، وقد ورد عن الصحابة -رضوان الله عليهم- أنهم قتلوا المرتدة.

وذهب الأحناف إلى عدم قتل المرتدة، وأنها تسجن وتعاقب وتعزر حتى تتوب من ردتها تلك، وأخذوا بعموم نهي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن قتل المرأة..

ونجيب عليهم بهذا الحديث، أنه كما تقتل الثيب الزانية، وكما تقتل المرأة القاتلة بغير الحق، كذلك تقتل المرأة المرتدة، وتلك النصوص عامة وهذه خاصة.

واستدلوا بفعل بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن عليًا -رضي الله عنه- سبى تلك المرأة من بني حنيفة، وأنجب منها محمد بن الحنفية في قتال المرتدين في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-، قالوا ولم ينكر عليه أحد من أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فيكون ذلك إجماعًا سكوتيا، ورجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

ولكن يجاب عليهم بأن تلك المرأة التي سباها عليّ -رضي الله عنه وأرضاه- إنما كانت هي من سبي بني حنيفة، أي من أموال بني حنيفة، من رقيق بني حنيفة، من إماء بني حنيفة، لذلك ذكر الإمام الذهبي -رحمه الله- في سير أعلام النبلاء من صفة محمد بن الحنفية أنه

كان أسودا، ولم يكن بنو حنيفة من السود، بل كانت ألوانهم من ألوان العرب، واللون الأسود قليل في العرب.

وجاء في سير أعلام النبلاء وجاء عند الواقدي من صفة تلك التي سباها عليّ -رضي الله عنه وأرضاه- أنها كانت مولاة سوداء، فذلك قرين على أنها أصلًا من أموال بني حنيفة، فقسمت مما قسم من غنائم أولئك المرتدين.

فلا يستدل بتلك الحادثة على عدم قتل المرتدة، بل الصحيح هو ما ذهب إليه جمهور العلماء -رحمهم الله رحمة واسعة- المالكية والشافعية والحنابلة.

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا وكذا، هذه من صيغ الحث والإغراء على تلك الأفعال الفاضلة الحميدة التي جاءت في السنة، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يحث المسلمين، يحث كل من يؤمن بالله واليوم الآخر على هذه الخصال الحميدة.

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)): لأن اللسان هو من الأبواب التي تورد ابن آدم الموارد، اللسان قد يخرج به المرء من الإيمان، اللسان قد يشعل الحروب، اللسان فيه من آفات الكلام على الله بغير علم، في الفُتيا بغير علم، هذه من أعظم آفات اللسان.

من آفات اللسان الغيبة، من آفات اللسان النميمة، من آفات اللسان الكذب، لا سيما على الصديقين، على الصالحين، على المجاهدين، على أولياء الله، الكلام عليهم ليس كالكلام على سائر الناس، الكلام على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من آفات اللسان العظيمة.

النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول كما عند البخاري: ((وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم)). وفي رواية الإمام الترمذي وابن ماجه –رحمهما الله–: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأسا، فيهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا))، والعياذ بالله.

وقال –صلى الله عليه وآله وسلم– فيما رواه الإمام الدارمي –رحمه الله– والإمام أحمد –رحمه الله– قال: ((من صمت نجا))، وقال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)) [١].

وفي حديث معاذ بن جبل –رضي الله عنه وأرضاه–، أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال له: ((ألا أخبرُك بمِلاكِ ذلِك كلِّه؟ قلتُ: بلَى، يا نبيَّ اللهِ، فأخذَ بلسانِهِ، وقال: كُفَّ عليكَ هذا)). فاستشكل ذلك معاذ وسأل عن ذلك، فقال: يا نبيَّ اللهِ، إنَّا لمؤاخَذونَ بما نتَكلَّمُ بِه؟ قال: ((ثَكلتكَ أمُّكَ يا معاذُ، وَهل يَكبُّ النَّاسَ في النَّارِعلَى وجوهِهِم، أوعلَى مناخرِهِم، إلَّا حصائدُ ألسنتِهِم)).

فأمر اللسان عظيم، ولا بد من التنبه له.

يقول عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه–: (وَاللهِ الذِي لا إلهَ إلَّا هُوَ مَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَقُّ بِطُولِ سجْنٍ مِنْ لِسَانٍ) [٢].

---

[١] رواه البخاري.

[٢] الجامع الكبير للسيوطي.

وقال بعضهم: من كثر كلامه كثر سقطه. وكذلك قيل: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وكذلك قيل: جعل الله سبحانه وتعالى لكل شيء بابين، وجعل للسان أربعة أبواب، الأسنان مصراعان والشفتان مصراعان.

فلا بد أن نراقب الله سبحانه وتعالى فيما يخرج من أفواهنا، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. [ق]

واختلف العلماء: هل يسجل الملائكة كل ما يتكلم به الناس، أم فقط يسجلون الحسنات والسيئات، ولكن لم يختلفوا في أنهم يسجلون ويدونون على الإنسان الحسنات والسيئات، فلا بد على المرء أن يراقب لسانه فيما يتفوه به من كلام.

يقاس على ذلك ومن فروع هذه المسألة؛ الكتابة، كما قال بعض الفقهاء: الكتاب كالخطاب، فلا تكتب بيمنك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه.

ثم قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)): تأملوا في هذا التعبير النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في الإسلام إكرام الجار، وفي الإنجيل عند النصارى عدم الإساءة إلى الجار، وبينهما فرق، فرق بين الأمر بعدم الإساءة للجار وبين الأمر بالإحسان إلى الجار وعد ذلك من الإيمان، الفرق أن عدم الإساءة إلى الجار ليس فيه الزيادة على ذلك من الإحسان وتعهد الجار بالخير وبالهدايا وبتفقده وبمواساته وبعيادته إذا مرض، إلى غير ذلك مما يفهم من الإحسان إلى الجار ومن إكرام الجار الموجود عند أهل الإسلام فيما حثهم عليه النبي ﷺ ولا يوجد هذا المعنى عند النصارى.

وليس في الإسلام القول المشهور أن الإسلام حث على سابع جار، بل الإسلام حث على أربعين جارًا من الجوار، قال الزهري هكذا وهكذا وهكذا وهكذا، أي أربعين من الأمام واليسار واليمين والخلف، كما جاء ذلك عند البخاري في الأدب المفرد.

وقال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)).[١] أي سيكون للجار نصيبًا من الإرث.

فهذا من الإحسان للجار الذي حثنا عليه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)).

وقال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)): فإكرام الضيف هو أمر محمود قد حث عليه الإسلام، وهو معروف حتى عند أهل الجاهلية في جاهليتهم الجهلاء قبل الإسلام، وكما قيل الشجاعة والكرم صنوان، وممن عرف بذلك وعلى رأسهم حاتم الطائي، الذي من شعره يقول:

أَوقِـد فَـإِنَّ اللَيـلَ لَيـلٌ قَرُّ ... وَالريحَ يا موقِـدُ ريحٌ صِـرُّ
عَسـى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ ... إِن جَلَبَت ضَـيفاً فَأَنتَ حُرُّ

يقول لغلامه أوقد النار في الليل، إن جلبت هذه النار الأضياف فأنت حر. يعتق مملوكه فرحًا بالأضياف.

---

[١] متفق عليه.

وللأسف البعض منا اليوم يكفهر وجهه حينما ينزل عليه الأضياف، هذا لم يكن عند العرب حتى في جاهليتهم.

يقول بعض أصحاب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وهو عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما–: من لم يُضف فليس من محمد وليس من إبراهيم –عليهما السلام–.

إبراهيم عليه السلام شيخ الملة كان يكنى بأبي الضيفان، كان لا يأكل إلا ويأكل معه أحد، إلا ويعزم على ذلك ويدعو على ذلك بعض الأضياف.

فإكرام الضيف من الأمور المحمودة التي حث عليها الإسلام، بل بين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كما في الصحيحين المقدار من الضيافة، قال: ((وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ))، قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ)).

لذلك ذهب الإمام الليث بن سعد والإمام أحمد بن حنبل –رحمهما الله– إلى أن إكرام الضيف في اليوم الأول وليلة ذلك اليوم واجب، ليس على التنفل، ليس من الأمور المستحبة، وإن لم يُكرم له أن يشكوه للقاضي المسلم، لأنه منعه حقًّا من حقوقه وهو إكرام الضيف.

إكرام الضيف جائزة الضيف اليوم والليلة، ثم بعد ذلك ثلاثة أيام بلياليهن، ثم ما زاد على ذلك فهو صدقة.

ثم النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– نهى الضيف عن الإكثار عند من استضافه أكثر من ذلك، حتى لا يؤثمه، قالوا كيف ذلك؟ قال: ((يُقيم عنده ولا شيءَ له يَقرِيه به)) [(١)].

---

(١) رواه مسلم.

الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رجلًا قال للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: أوصني. قال: ((لا تغضب)). فردد مرارًا، قال: ((لا تغضب)). رواه البخاري.

***

الشرح: هذه وصية نافعة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والوصية الأمر العظيم الذي يوصي ويحث به الإنسان غيره.

ونجد ها هنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حث ذلك الرجل على عدم الغضب، وحث غيره على غير ذلك؛ وهذا يبين لك أنه لا بد من معرفة حال الأشخاص السائلين حتى تعطيهم ما ينفعهم.

كذلك في مسألة الفتيا، لا بد من معرفة أحوال أولئك السائلين، كما ورد وروي عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه أتاه رجل فسأله عن حكم القتل، قال: هل للقاتل من توبة؟ قال: لا. ثم بعد ذلك أتاه رجل، فسأله عن حكم القتل، فقال: هل للقاتل من توبة؟ قال: نعم. فاستشكل تلامذة ابن عباس ذلك الجواب مع أن السؤال واحد، فقال لهم: أما الأول فتفرست فيه أنه سيعزم على القتل، لم يقتل بعد، وإنما أراد أن يأخذ صكًا بالتوبة، أنه بعد أن يقتل ويجني تلك الجناية العظيمة يتوب، فأغلق عليه ابن عباس -رضي الله عنهما- الباب، فقال لا ليس للقاتل من توبة، أما الآخر فتفرس عبد الله بن عباس في حاله أنه قد

قتل وهو نادم على ذلك الفعل أشد الندم، فقال له نعم له توبة، حتى لا يغلق عليه باب التوبة فيصبح آيسًا وقانطًا من رحمة الله سبحانه وتعالى.

كذلك ينبغي معرفة حال السائلين عن تعبير الرؤى، كما ورد عن محمد بن سيرين -رحمه الله رحمةً واسعة- أن رجلًا أتاه فسأله، قال رأيت فيما يرى النائم أني أؤذن، قال تقطع يدك. فجاءه آخر بعد ذلك وقال له إني رأيت فيما يرى النائم أني أؤذن، فقال له تحج البيت بإذن الله تعالى. فعجب تلامذته لذلك الجواب المختلف، مع أن الرؤيا واحدة، فأجابهم بأنه تفرس من حال الأول أنه من العاصين الفسقة الذين يتجرؤون على محارم من الله سبحانه وتعالى ولا يرفع رأسًا بما جاء من نواهي الله سبحانه وتعالى، فقال له إنك تقطع يدك، أخذ ذلك من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف]. وأما الآخر فتفرس فيه الصلاة، وأخذ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج].

فلا بد من مراعاة حال السائلين سواء كان في الفتوى أو كان في الرؤيا على السواء، وهذا الذي كان يراعيه السلف -رضوان الله عليهم-، أخذوه من سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإنه ظهر له من حال هذا الرجل المبهم الذي جاء في هذا الحديث -لم يُسمَّ- أنه يغضب، وأنه لربما كان شديد الغضب ونحو ذلك، فأوصاه ثلاثا لا تغضب لا تغضب لا تغضب.

وهذا لا يعني أنه يمسك نفسه عن ذلك الخلق الكامن في النفس ألا وهو الغضب، بل هذا النهي عن لوازم ذلك الغضب وتوابع ذلك الغضب من إنفاذ ذلك الغضب في معصية الله سبحانه وتعالى، فيما لا تحمد عقباه، هذا هو المنهي، وليس المنهي عنه ذلك الأمر الجبلي الذي يحصل في النفس.

وعكس الغضب هو الحلم، والحلم أمر محمود، خلق دلنا عليه رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، حيث قال –صلى الله عليه وآله وسلم– في الحديث الذي رواه الإمام البخاري ومسلم من حديث أشج عبد قيس، قال له: ((إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ)).

فهذه الخصلة يحبها الله سبحانه وتعالى، فينبغي علينا أن نتصف بهذه الصفة ونتخلق بهذا الخلق، وهو أمر فطري، وكذلك يكتسب وينمى بالدربة عليه، كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم)).

الأحنف بن قيس الذي اشتهر بذلك الخلق النبيل، كان يقول: ((إني لست بحليم، وإنما أتحالم)). يعني يجاهد نفسه على ذلك. كما جاء في سير أعلام النبلاء عند الإمام الذهبي –رحمه الله– في المجلد الرابع.

كذلك جاء عن الأحنف بن قيس –رحمه الله– أن رجلًا قال له لو قلت لي كلمة لتسمعن عشرا (أي من السباب والشتائم)، فقال: ولكنك لو قلت عشرا، لن تسمع كلمة.

وهذا من حلمه –رحمه الله–، وعدم إنفاذ غضبه فيما لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

الحديث السابع عشر

عـن أبي يعلـى شـداد بـن أوس -رضـي الله عنـه-، عـن رسـول الله -صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم- قـال: ((إن الله كتـب الإحسـان علـى كـل شـيء، فـإذا قتلـتم فأحسـنوا القِتلـة، وإذا ذبحـتم فأحسـنوا الذبحـة، وليُحـد أحـدكم شـفرته وليُـرح ذبيحتـه)). رواه مسلم.

***

الشرح: هذا من الأحاديث الواردة في سماحة الإسلام، وفي رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بيّن في هذا الحديث ((إن الله -سبحانه وتعالى- كتب)): أي فرض، لأن الكتابة تأتي بمعنى الفرض، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة]، وقال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة]، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة]، أي فُرِض عليكم الصيام، فُرِض عليكم القِصاص، فُرِض عليكم القتال، إلى آخر هاتيك الآيات.. هذا فيما يتعلق بالكتابة الشرعية.

وهناك أيضًا كتابة قدرية، وهي القضاء والقدر الذي قدَّره الله سبحانه وتعالى.

فالكتابة القدرية لا بد أنها ستحصل، ما كتبه الله سبحانه وتعالى وما قدَّره الله سبحانه وتعالى يحصل لا محالة.

وأما ما كتبه الله سبحانه وتعالى كتابة شرعية، فقد يحصل من المؤمنين وقد لا يحصل.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث يقول: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء)): ليس فقط على المسلمين، وليس فقط على البشر، وليس حتى على البهائم، بل كان بعض الصحابة كما ذكر أنس -رضي الله عنه وأرضاه- أنهم يطرقون الأبواب بأظافرهم أو بأطراف أناملهم، رحمةً ورفقًا بتلك الجمادات، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه الإمام مسلم: ((ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه)).

ثم ضرب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض الأمثلة على الإحسان، وهذا من أساليبه في التوضيح وفي البيان، قال: ((فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)): والفرق بين القتل والذبح أن القتل لا يبيح المقتول، أي لا يبيح للأكل، بينما الذبح الشرعي يبيح المذبوح للأكل.

القتل قد يُقتل الكافر، قد يُقتل المسلم إذا أتى ما يوجب القتل، كما مر معنا في الحديث الآنف، كأن يكون من الزناة المحصنين، كأن يكون قد قتل نفسًا بغير حق.

القتل قد يكون لبعض الحيوانات التي جاء قتلها، كالوزرغ، كالكلب العقور، كالغراب، كالأفعى، كالعقرب، إلى غير ذلك.

فهذا القتل لا يبيح هذه المقتولات، سواء كانت من البشر أم من الحيوانات، وإنما الذبح لما أجازه الله سبحانه وتعالى لنا أن نأكله بإذن الله تعالى فذلك الذي يبيح المذبوح.

وهنا قاعدة في مسألة ما يجوز أكله عند الفقهاء، قالوا: كل ما أُمر بقتله أو نهي عن قتله؛ حُرّم أكله.

كل ما أمر بقتله كما ذكرنا كالكلب العقور، الغراب، الأفعى، العقرب، الحدأة، إلى غير ذلك، يحرم أكل تلك الحيوانات، لأنه جاء في الشرع الأمر بقتلها.

كذلك ما جاء في الشرع النهي عن قتله، كالهدهد مثلا، كالنمل، كالعنكبوت عند الحنابلة، إلى غير ذلك مما نهي عن قتله؛ لا يباح أكله.

والذبح يشترط فيه أهلية الذابح أولًا، وهو أن يكون مسلمًا، أو كتابيًا ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة]، فإذا كان مسلمًا أو كتابيًا أُبيحت ذبيحته، أما المرتد أو الوثني فلا تباح ذبيحته، فالرافضي مثلًا لا تباح ذبيحته كما نص على ذلك الإمام البخاري -رحمه الله رحمةً واسعة-.

الشرط الآخر: أن يكون أن تكون آلة الذبح كالسكين ونحوها مما يراق بها الدم، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وورد في الحديث: ((مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ فَكُلْ))[١].

والثالث: لا بد من ذكر الله سبحانه وتعالى على الذبيحة.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بيّن بعض الأمثلة فيما كتب الله سبحانه وتعالى فيه الإحسان، حتى في الذبح لا بد أن نحسن في طريقة الذبح، ومن الإحسان في ذلك أن نحد الشفرة، ولا نذبح الذبيحة بشفرة غير مؤهلة للذبح، ولا نحدها أمام الذبيحة، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من النهي عن حد الشفرة أمام البهيمة، هذا من الرفق بتلك البهائم ومن الإحسان إليها.

ومما يذكر في هذا الصدد: أنه فرق بين البسملة والتسمية، البسملة هي "بسم الله الرحمن الرحيم"، والتسمية هي "باسم الله"، فالتسمية تشرع مثلًا عندما نأكل الطعام ((يا غلام سَمِّ

---

[١] رواه البخاري، ومسلم.

الله))، باسم الله، ولا يشرع زيادة على ذلك "الرحمن الرحيم" كما يكون عند بداية قراءة القرآن، أو استفتاح الكتب والتأليفات والخطب، إلى غير ذلك.

وعند الذبيحة لا يشرع أن يقال "الرحمن الرحيم"، فإنه ليس مقام هذه الأسماء عند الذبح، فلذلك يكتفى بـ"باسم الله" فحسب، لذلك لم تذكر البسملة في بداية سورة التوبة؛ لأن بدايتها ﴿بَرَاءَةٌ﴾، فلا يتناسب المقام مع ذكر "بسم الله الرحمن الرحيم".

الحديث الثامن عشر

عن أبي ذر جندب بن جنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل -رضي الله عنهما-، عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((اتقِ الله حيثما كنت، وأتبِع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن)). رواه الترمذي، وقال حديث حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح.

***

الشرح: هذه وصايا جامعة من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذه الأحاديث الواردة في الأربعين النووية تدلك على علو كعب الإمام النووي -رحمه الله- في العلم؛ كيف أنه اختار هذه الأحاديث العظيمة من جملة آلاف الأحاديث وجعلها في هذه الرسالة المختصرة.

قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((اتق الله حيثما كنت)): تقوى الله سبحانه وتعالى كما قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل في التقوى، هي: أن تجعل بينك وبين عذاب الله سبحانه وتعالى واقيا.

وقيل: التقوى هي كل الأقوال والأفعال التي ترضي الله سبحانه وتعالى، فلا يراك الله سبحانه وتعالى إلا حيث أمرك الله سبحانه وتعالى، ولا يراك فيما نهاك عنه سبحانه وتعالى.

((حيثما كنت)): أي في أي مكان كنت، أكنت في البيت، أكنت في السوق، أكنت مع الناس، أكنت بمفردك.. لا بد أن تستشعر معية الله سبحانه وتعالى لك، وتتقي الله سبحانه في كل مكان، تتقي الله بأن لا ترتكب من المحرمات شيئا.

((وأتبع السيئة الحسنة تمحُها)): فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يستغفرون الله، فلا بد من المبادرة للتوبة والأوبة بعد الذنوب.

إنه ليجب علينا أن نتقي الله في كل مكان وفي كل حين، وإن بدر منا بعض التقصير لا بد أن نبادر بالتوبة، فإن لم نبادر بالتوبة فإن الحسنة تمحو السيئة، مجمل الحسنات تمحو السيئات، لذلك ذلك الرجل الذي أصاب من امرأة أجنبية لا تحل له تلك القبلة المحرمة، ثم جاء يشتكي للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فقال: ((أصليت معنا؟)) قال: نعم. فتلا عليه آية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود]. فقال رجل من القوم أله خاصة أم للناس كافة؟ قال: ((للناس كافة)).

فهناك من الحسنات ما يذهب الله سبحانه وتعالى بها الصغائر من الذنوب، كالصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، والعمرة إلى العمرة، إلى غير ذلك، هذه يغفر الله سبحانه وتعالى بها الصغائر، كما قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ما اجتنبت الكبائر)).

كذلك صيام يوم عاشوراء، كما جاء النبي –صلى الله عليه وآله وسلم-: ((وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله)). كما عند مسلم، وصيام يوم عرفة كما قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- من حديث أبي قتادة الأنصاري عند الإمام مسلم: ((صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده)).

هناك بعض الحسنات الله سبحانه وتعالى يذهب بها حتى الكبائر من السيئات، ألا وهي:

أولًا: التوبة، فبالتوبة يغفر الله سبحانه وتعالى جميع الذنوب ومنها الكبائر.

ثانيًا: الحج المبرور، فكما جاء عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((من حج، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه)) [١]. أي من الخطايا.

ثالثًا: الشهادة في سبيل الله، القتل في سبيل الله، كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم-: ((للشهيد ست خصال)) أو في رواية ((سبع خصال)) كما جاء عند أحمد في المسند، وعند أبي داوود في السنن، وذكر منها –صلى الله عليه وآله وسلم-: أنه ((يغفر له في أول دفعة من دمه)).

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن السيف محاء للخطايا)) [٢].

---

[١] متفق عليه.

[٢] أخرجه أحمد، وابن حبان، والدارمي، والطبراني، وغيرهم.

وأما الردة والكفر والشرك: فلا يكفره إلا التوبة من ذلك الكفر، والرجوع لله سبحانه وتعالى، كما بين الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء]. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر]، فلا يغفر الشرك الأكبر والكفر الأكبر إلا بالتوبة من ذلك الشرك والعودة للإسلام، فإن الإسلام كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم– يجبّ ما قبله.

ثم قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((وخالق الناس بخلقه حسن)): ولم يقل وخالق أهل الإيمان بخلق حسن، ولم يقل وخالق أهل الصلاح بخلق حسن، ولم يقل وخالق المسلمين بخلق حسن، بل قال ((الناس))، كل الناس يجب علينا أن نخالقهم ونعاشرهم بالأخلاق الحسنة.

والأخلاق الحسنة ليست ما تشهيناها وارتأيناها بالعقول وبالذوق، بل الأخلاق الحسنة ما دل عليها الكتاب والسنة، وهي كثيرة لا يسعها هذا المقام، فهذه الأخلاق الحسنة ينبغي أن يلتزمها المسلم وخاصة المتدين الذي يشار إليه بالبنان، والذي يرمق بالعيون، وكل زلة تحسب عليه.

فالناس يستعظمون الأخطاء في الأخلاق من المتدينين ما لا يستعظمونه من عامة الناس، إذا وقع ذلك المتدين في بعض الأخطاء في أخلاقه وفي سوء الأخلاق قد يُطعن في الإسلام وقد يطعن في المنهج الصحيح بسبب ذلك الخلق الذميم الرديء الذي نهانا عنه الإسلام.

فينبغي أن يحرص الإنسان كما يحرص على أن يتمسك بالعقيدة والتوحيد –وهذا أمر محمود–، كما يحرص أن يتمسك بالشريعة والأحكام –وهذا أمر محمود–، كذلك ينبغي عليه أن يتمسك بالأخلاق والآداب بالحسنة.

الحديث التاسع عشر

عن أبي العباس عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: كنت خلف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يوما، فقال: ((يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رُفعت الأقلام، وجفت الصحف)). رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: ((احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم ان ما اخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)).

***

الشرح: هذا حديث عظيم جدًا، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خاطب به غلاما، الغلام في لغة العرب يطلق على الصبي الصغير الذي لم يناهز الحلم ولم يبلغ بعد، ويطلق على العبد المملوك، ويطلق لفظ الجارية على الصغيرة التي لم تبلغ الحلم، وعلى المملوكة.

فتأملوا هذه المعاني العظيمة، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يغرسها في صدر هذا الصغير الذي لم يبلغ الحلم بعد، ألا وهو عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما وأرضاهما- .

لا تعجب بعد ذلك حينما يخرج عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن -رضي الله عنه وأرضاه-، فبسبب هذه التنشئة على يدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فلا بد من الاهتمام بالنشء الصغير وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة، على العقيدة، على الأحكام، على توقير الله، وتوقير رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

جاء في صحيح مسلم عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)) [(١)]. وكما قيل:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا   عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ

قال له: ((إني أعلمك كلمات)): وهذا مما يحسن بالمرء أن يبدأ ويجعل مقدمة كلامه إن كان ذلك الكلام مهمًا عظيمًا في المسائل المدلهمة، أن يقدم له بما يشحذ الهمم للانتباه.

يقول: ((إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)): أي احفظ حدود الله، احفظ شريعة الله سبحانه وتعالى، احفظ دين الله، لا تفرط في أوامر الله، لا تفرط في نواهي الله فترتكب تلك النواهي، عليك أن تراعي الله سبحانه وتعالى وتعظم الله سبحانه وتعالى في ذلك كله، لكي يحفظك الله سبحانه وتعالى من بين يديك ومن خلفك، يحفظك من شياطين الإنس ومن شياطين الجن، يحفظك من الشبهات ومن الشهوات على السواء.

---

(١) اللفظ لابن حبان.

ثم قال له –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)): أي إذا سألت فلا تسأل إلا الله وحده، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

جاء جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام وهو قد وضع على المنجنيق، وقيل بين السماء والأرض، لما رمي في النار التي جمعت وأضرمت لإبراهيم الخليل عليه السلام، فقال له يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم.

"وأما إلى الله فنعم" هذا من غاية توحيده وإخلاصه لله سبحانه وتعالى، ألّا يسأل إلا الله فيما لا يستطيع عليه إلا الله.

أما ما يستطيع عليه المخلوقين فلا بأس بذلك، ولكنه خلاف الأولى، حتى إن بعض السلف كان يسقط سوطه من فوق الفرس فينزل هو بنفسه فيأخذه ولا يطلب من غيره أن يناوله ذلك السوط.

وورد عن بعض السلف كراهية طلب دعاء الله سبحانه وتعالى من الغير، جاء رجل للإمام مالك بن دينار، فقال له ادع الله لي فإني مضطر، قال: بل ادعُ الله أنت، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل].

وجاء ذلك الرجل لعمر الخطاب –رضي الله عنه وأرضاه–، فقال له: ادع الله لي. فقال: أأنبياء نحن؟! ادع الله أنت.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– أن طلب الدعاء من الغير من الأمور المكروهة شرعا، وذكر شيخ الإسلام –رحمه الله رحمة واسعة– أن ذلك من قبيل طلب الرقية، كما جاء ذلك في حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب –كما عند

مسلم-، قالوا من هم يا رسول الله؟ قال: ((هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)).

((فإذا سألت فاسأل الله)): فيما لا يقدر عليه إلا الله، لا تسأل إلا الله فإن سؤالك لغير الله سبحانه وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله من قبيل الشرك في عبادة الله سبحانه وتعالى، لا تقل يا علي، لا تقل يا حسين، لا تقل يا عبد القادر الجيلاني، ولكن قل يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا رؤوف، يا بر، يا سميع، يا مجيب، إلى غير ذلك من أسماء الله سبحانه وتعالى.

بل لا ينبغي أبدًا، من الشرك بالله سبحانه وتعالى أن تشرك معه غيره في الدعاء كائنًا من كان، ولو كان رسول الله ﷺ.

قال ﷺ فيما صح عنه فيما جاء عند الترمذي وغيره، قال: ((الدعاء هو العبادة))، ولم يصح عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (الدعاء مخ العبادة).

ثم قال ﷺ لعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رُفعت الأقلام، وجفت الصحف)): فلو اجتمعت الأمة، أمة الدعوة والبلاغ وليست أمة الاستجابة فقط، أمة الدعوة كل الناس بعربهم بعجمهم بإنسهم بجنهم بمؤمنهم بكافرهم، لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك، ولم يقل (لن) بل (لم)، أي أن ذلك كتب من ذي قبل، فلم ينفعوك أبدًا إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا في المقابل على أن يضروك بشيء ما استطاعوا أن يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك.

يقول الشيخ الفاضل المفضال ناصر الفهد -فك الله أسره-: "((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)) فإن الشيخ المجاهد أبا عبد الله أسامة بن لادن -حفظه الله ونصره- اجتمعت عليه الأمم من أقطارها، على اختلاف أديانهم، وألوانهم، من صليبيين ويهود، وهندوس، وبوذيين، ومنافقين، وخونة، وغيرهم، في مشارق الأرض ومغاربها، بجميع ما بأيديهم مما بلغته علومهم، من الأسلحة، والطائرات، والأقمار الصناعية، وأجهزة التجسس والمراقبة، ومع أن صورته انتشرت في الأرض انتشار النار في الهشيم، فصار يعرفه القاصي والداني، والصغير والكبير، والمسلم والكافر، والرجل والمرأة، ومع هذا كله لم يعثروا له على أثر، ولا وقفوا له على خبر، ولا يدرى تحت أي سماء هو؟!" [١].

((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)) ما قُتل إلا لما حان أجله -رحمه الله-.

((رفعت الأقلام وجفت الصحف)): كل ذلك مكتوب عند الله سبحانه وتعالى، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾. [الإسراء]

ثم بين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في بعض روايات هذا الحديث: ((تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)) إذ أن الناس جميعًا باختلافهم وباختلاف مراتبهم في الإيمان يعرفون الله في الشدة، أولئك المشركون من العرب الذين بُعِث فيهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في جاهليتهم الجهلاء حينما يركبون البحر وتثور بينهم الأمواج يعبدون الله سبحانه

---

[١] [آيات الرحمن في غزوة سبتمر، للشيخ ناصر الفهد فك الله أسره].

وتعالى ويدعون الله سبحانه وتعالى وحده، في الشدة يوحدون الله سبحانه وتعالى، بعد ذلك حينما ينجيهم في الرخاء يشركون بالله سبحانه وتعالى.

والغريب أن هناك من الناس اليوم ممن يشرك بالله في الرخاء والشدة على السواء، كالرافضة، يستغيثون بغير الله في الشدة والرخاء على السواء.

يقول النبي ﷺ: ((تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)) الله سبحانه وتعالى ذكر عن نبيه يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات]، من المسبحين أي من المصلين كما ذكر المفسرون –رحمهم الله.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قالوا كان من المصلين قبل ذلك، قبل أن يلتقمه الحوت، كان في الرخاء من المسبحين من الذاكرين من الشاكرين من المصلين، فلما جاء وقت الشدة نجاه الله سبحانه وتعالى برحمته. ((تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)).

ثم قال النبي ﷺ في ختام هذا الحديث: ((واعلم أن النصر مع الصبر)): وكما قيل إنما النصر صبر ساعة.

((وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)): قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح].

روي عن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–: لن يغلب عسر يسرين.

الحديث العشرون

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)). رواه البخاري.

***

الشرح: شرع من قبلنا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول من قبيل شرع من قبلنا الذي جاء التأكيد عليه في شرعنا، فهذا يُقبل ولا خلاف في ذلك.

القسم الثاني: شرع من قبلنا الذي جاء شرعنا برده، فهذا لا خلاف في رده وعدم قبوله.

القسم الثالث: وهي المسألة التي اختلف فيها أهل العلم، وهي الذي يكون من قبيل شرع من قبلنا ولم يرد في شرعنا ما يؤكده أو يرده. فهذا قد اختلف العلماء فيه وفي حكمه.

والصحيح أن يقال فيه: شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يخالف شرعنا.

((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى)): وهذا يدل على أن الناس كان عندهم شيء من الأقوال والأفعال التي وردت عن الأنبياء السابقين -عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم-.

قال: ((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)): وهذا يفهم على فهمين، الفهم الأول: أنه أخبر أن الذي لا يستحي يصنع ما يشاء، وهذا ورد في مورد الذم له.

والمعنى الثاني الذي قد يفهم منه هذا الحديث: أن الأمور التي لا يستحيي منها، ليست من خوارم المروءة، فافعلها ولا حرج.

لكن الأرجح والأظهر والله أعلم المعنى الأول، أن الذي لا يستحي وليس فيه مسحة من حياء يعمل ما يشاء دون رادع ودون زاجر، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((الإيمان بضع وستون شعبة))، وفي رواية: ((بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)) رواه البخاري ومسلم.

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين: ((الحياء لا يأتي إلا بخير)). وورد عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- من حديث ابن عمر، مرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال له: ((دعه؛ فإن الحياء لا يأتي إلا بخير)) وفي رواية: ((دعه؛ فإن الحياء من الإيمان)).

ووُصف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه أشد حياء من العذراء في خدرها.

فالحياء من الإيمان، والحياء أمر محمود، والحياء قد جاء الحث عليه من الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولا يصح ما يقوله العامة "لا حياء في الدين"، بل الدين كله حياء،

والحياء من الدين، بل يقال إن الله لا يستحي من الحق، لذلك جاء في حديث عائشة: "رحم الله نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن" [١].

وفرق بين الحياء وبين الخجل، الحياء محمود كله، والخجل مذموم كله، والفرق بينهما أن الحياء هو ما صدك عن الفواحش، ما صدك عن الرذائل، ما صدك عن السفاسف والأمور المنحطة، ما صدك عن خوارم المروءة.

أما الخجل فهو ما صدك عن الأمر بالمعروف، ما صدك عن النهي عن المنكر، ما صدك عن الجهر بالدعوة الإسلامية، ما صدك عن الخير.

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي عمروٍ وقيل: أبي عُمرة سفيان بن عبد الله الثقفي -رضي الله عنه-، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: ((قل آمنت بالله، ثم استقم)). رواه مسلم.

***

الشرح: في هذا الحديث حرص الصحابة -رضوان الله عليهم- على ما ينفعهم في دينهم، وفيه سؤال أهل العلم، حيث سأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأراد ألا يسأل

---

[١] أخرجه أحمد في المسند، ومسلم، وأبو داوود، وابن ماجه.

غيره، فيعطيه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– مما وهبه الله من جوامع الكلم، قال له: ((قل آمنت بالله، ثم استقم)).

((قل)): بقول القلب وقول اللسان معًا.

((ثم استقم)): أي أتبع ذلك بالاستقامة على الدين، بالاستقامة على الشرائع الظاهرة، بالاستقامة على العمل الذي هو من الإيمان وداخل في الإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف]، عمر بن الخطاب –رضي الله عنه وأرضاه– قرأ هذه الآية على المنبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ قال: لم يروغوا روغان الثعلب.

وقد أحسن شوقي حين قال: مخطئ من ظن يومًا أن للثعلب دينا.

لا بد من الثبات على ما جاءنا عن الله وعن رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولا نروغ عن ذلك مرة إلى الاشتراكية ومرة إلى الشيوعية ومرة إلى الديمقراطية، إلى غير ذلك من المناهج الأرضية، هذا هو روغان الثعلب، أما الاستقامة فهي الاستقامة على الدين، الاستقامة على ما تنزل به الروح الأمين، على الصادق الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم–.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود]، فالطغيان هو مجاوزة الحد، الطغيان هو مجاوزة ما جاء عن الله وعن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–وعدم الاستقامة على أمرهما.

الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت]، فبين في هذه الآية أن الإنسان مهما سدد وقارب، مهما حرص على الاستقامة، لا بد أنه سيصدر منه بعض الخلل

وبعض الخطل وبعض الخطأ، فلا بد عليه حين ذاك من الاستغفار، من التوبة، من الأوبة، من الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، من أن يسدد ويقارب.

وكما دعا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه -في صحيح مسلم- أن يجعله مسددا، فكذلك ينبغي أن نكون، ونكثر الدعاء لله سبحانه وتعالى ونلح عليه في الدعاء أن يجعلنا من المستقيمين، أن يثبتنا على الاستقامة، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هذا الدعاء في كل صلاة، بل في كل ركعة يقوله المسلم، فلا بد أن نكثر من هذا الدعاء ونلح على الله سبحانه وتعالى في هذا الدعاء، لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما روي عنه عند الترمذي، قال كما في حديث أنس: (أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت] قال: ((قد قالَ الناسُ ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممنِ استقام)). أي قالوها ثم كفروا فلم يستقيموا. المستقيم هو الذي مات على هدي النبي ﷺ.

وكما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الصحيحين، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((الأعمال بالخواتيم)).

فلا بد أن نكثر من دعاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المستقيمين، وأن يميتنا ونحن على الاستقامة.

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري -رضي الله عنهما- أن رجلًا سأل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئا، أأدخل الجنة؟ قال: ((نعم)). رواه مسلم.

***

الشرح: جابر بن عبد الله من المكثرين في الرواية عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، والمكثرون من الصحابة -رضوان الله عليهم- عدد قد عد العلماء والمحدثون منهم سبعة، والبعض قدم وآخر على حسب الاستقراء، فمن العلماء من يذكر من جملة المكثرين في الرواية جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، وأبا هريرة -رضي الله عنه-، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبا سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعائشة -رضي الله عنهم جميعًا-.

فجابر -رضي الله عنه وأرضاه- هو واحد من أولئك المكثرين، وكما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((إنَّ الدال على الخير كفاعله)) [١]، و ((ومن دل على خير كان له مثل أجر فاعله)). كما روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه.

هذا الرجل يسأل عما يدخله الجنة، الاكتفاء بالفرائض فحسب، وهذا يبين لك تفاوت همم الناس في العبادة وفي رضا الله سبحانه وتعالى، أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-

---

[١] سنن الترمذي.

يسأل عن الدخول من أبواب الجنة جميعا، عن رجل يدعى من أبواب الجنة جميعا، وكما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس الأعلى)) [(١)]، ففيه الترغيب في الهمة العالية في العبادة وفي مرضاة الله سبحانه وتعالى.

هذا الصحابي هذا الرجل لم يُسمَ وهو مبهم، ها هنا اكتفى بالفرائض فحسب، قال يا رسول الله، أرأيت إذا صليت المكتوبة؟ أي الصلوات الخمس المكتوبة في اليوم والليلة.

وهناك بعض الصلوات شرعت وفرضت لكن لها سبب، أما هذه الصلوات الخمس المكتوبات المفروضات -كما بينا آنفًا- أن الكتابة بمعنى الفرض والوجوب، كما قال الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة]، إلى غير ذلك من الآيات..

فهو يقول إذا صليت تلك المكتوبات، ولم أزد على ذلك من النوافل والسنن وغيرها، وحرمت الحرام وحللت الحلال.. ها هنا لم يسأل الصحابي عن الزكاة ولم يسأل عن غيرها من الشرائع كالحج مثلًا، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- راعى حال هذا السائل، -والله أعلم- أنه يبدو للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من حال ذلك السائل أنه ليس من الأثرياء، ليس من أصحاب المال الذين تجب عليهم الزكاة، فلم يتطرق لذلك، وأما الحج فلم يفرض إلا بعد ذلك، ثم نقول كل تلك الفرائض تندرج في قوله "حللت الحلال وحرمت الحرام"، فمن تحريم الحرام ألا نترك الزكاة لأن ترك الزكاة من المحرمات، ألا نترك صيام رمضان لأن صيام رمضان واجب وتركه محرم، إلى غير ذلك من الفرائض.

---

(١) البخاري.

فكل شعائر الإسلام الواجبة المفروضة تدخل في هذه الكلمة، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أجابه بالإيجاب؛ أي من قام بفرائض الإسلام، بأركان الإسلام، بواجبات الإسلام؛ يدخله الله سبحانه وتعالى دار السلام.

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمُعتقها أو موبقها)). رواه مسلم.

***

الشرح: (الطَهور) وفي بعض النسخ (الطُهور)، الطَهور بالفتح والطُهور بالضم، كذلك الوُضوء والوضَوء، السُحور والسَحور، والفرق بينهما: بالضم هو الفعل نفسه، وأما بالفتح فالماء المعد للطهارة، فالطُهور هو عملية الوضوء، والطَهور بالفتح هو الماء المعد لذلك.

الوُضوء والوَضوء كذلك، السُحور والسَحور كذلك، السُحور بالضم عملية تناول الطعام وقت السحر، أما بالفتح فهو الطعام المعد لذلك.

ومن اللطيف في هذا الباب أن تناول السَحور من سنن الصيام التي جاءت عن النبي ﷺ.

يحدثني بعضهم عن رجل من أهل العراق كان في رمضان لا يصوم النهار -والعياذ بالله- ، لكنه في كل يوم في كل وقتٍ للسحر يجلس معهم ويتناول تلك الوجبة قبل أن يخرج الفجر الصادق، فمرة في يوم من الأيام لم يوقظه أهله لذلك السحور، فلما جلس بعد ذلك غضب، قال لِمَ لَمْ تجلسوني؟ قالوا أنت لا تصوم، قال لا أقوم بالواجب أيضًا لا أفعل السنة! وهذا من وقاحة ذلك الرجل..

كيف يكون الطَّهور أو الطُّهور شطر الإيمان؟

قال بعض أهل العلم: شطر بمعنى جزء وليس نصف ها هنا، وهذا لا يسلم به وهو قول ضعيف، وبعضهم قال أن الله سبحانه وتعالى يضاعف أجر الطهور إلى أن يبلغ نصف الإيمان (شطر الإيمان)، وهذا أيضًا قول ضعيف، وبعض أهل العلم ذهب إلى أن الإيمان ها هنا بمعنى الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة]، ما كان الله سبحانه وتعالى ليضيع صلاتكم، إيمانكم أي صلاتكم، فالطهور هو شطر الصلاة أي نصف الصلاة؛ إذ أن الصلاة لا تصح إلا به.

والبعض الآخر من أهل العلم قال المراد هنا الطهارة الكبرى وهي التوحيد، الطهارة الكبرى وهي نفي الشرك، هناك تخلية وهناك تحلية، التخلية أولًا ثم التحلية، أولًا النفي "لا إله" نفي الند والضد لله سبحانه وتعالى، ثم توحيد الله سبحانه وتعالى، إثبات الألوهية وإثبات الربوبية وتوحيد الله سبحانه وتعالى في ذلك.

لذلك الله سبحانه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة]، فالمراد بالطهارة ها هنا طهارة التوحيد عن الشرك، طهارة الابتعاد عن الشرك، فهي كأنها نفي الند لله سبحانه وتعالى، نصف الشهادة.. لا إله إلا الله..

قال: ((والحمد لله تملأ الميزان الميزان)): الميزان يؤمن به أهل السنة والجماعة، وهو من المسائل المجمع عليها عند أهل السنة والجماعة، المعتزلة قالوا إن الميزان إنما هو ميزان معنوي يدل على العدل وليس ميزانًا حسيًا، أهل السنة والجماعة قالوا بل هو ميزان حسي له كفتان ولسان.

لكن بعد ذلك اختلف أهل السنة والجماعة في الأمور التي توزن في الميزان، أيوزن العمل، أم يوزن العامل، أم توزن الصحائف التي تكتب فيها الأعمال من سيئات وحسنات، والصحيح أن كل تلك الأمور توزن في الميزان، زيادة في العدل وفي عدم الإجحاف، يوزن عمل العامل كما جاء ها هنا ((الحمد لله تملأ الميزان))، كما جاء في الحديث المتفق عليه: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم))، وما جاء عند الترمذي: ((ما من شيء أثقل في الميزان يوم القيامة من حسن الخلق)).

ويوزن العامل نفسه، كما قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، لما ضحك الصحابة –رضوان الله عليهم– من دقة ساقي ابن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه–، قال: مم تضحكون؟ قالوا: نضحك من دقة ساقي ابن مسعود، قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إنهما في الميزان أثقل من جبل أحد)). وكما جاء أيضًا في السنن، عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)).

وتوزن الصحائف التي تكتب فيها السيئات وتكتب فيها الحسنات، كما جاء في حديث البطاقة المشهور، الذي قال له الله سبحانه وتعالى: ((هل ظلمك كتبتي الحافظون؟))، لما فُتحت له تلك السجلات من السيئات على مد البصر، تسعة وتسعين سجلا، ثم بعد ذلك أخرجت بطاقة فيها كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، فوضعت في كفة، وتلك السجلات في كفة، فرجحت بها تلك البطاقة، رجحت بجميع تلك السيئات هذه البطاقة.

ثم قال: ((وسبحان الله والحمد لله تملآن –أو تملأ– ما بين السماوات والأرض)): تملآن أو تملأ هذا من تحري الراوي وعدم قوله على رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– حينما ينسى أو يستشكل عليه لفظ يقول "أو"، في نهاية الحديث "أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم"، وهذا من تحريهم في النقل عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، لأن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال كما في الحديث المتواتر عنه: ((من كذب عليّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار)). مع أن هذا اللفظ وهذا اللفظ كله بنفس المعنى، لا يغير المعنى، تملآن أو تملأ بنفس المعنى لا يغير ولا يخل في المعنى، ولكن هذا من حرص الصحابي.

((سبحان الله)): في هذه الكلمتين تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل النقائص.

وتعظيم الله سبحانه وتعالى والثناء على الله سبحانه وتعالى في الشق الآخر في ((الحمد لله)).

فهذه الكلمتان من الكلمات الخفيفة على اللسان، الثقيلة في الميزان يوم القيامة بإذن الله سبحانه وتعالى، والتي يكون ثوابها عند الله سبحانه وتعالى عظيما.

وقد يستشكل البعض: كيف تكون هذه الأمور المعنوية كأنها حسية ((تملأ ما بين السماء والأرض))، ((تملأ الميزان))، ((ثقيلة في الميزان))..؟

نقول: إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، قادر أن يجعل هذه الأمور المعنوية أجرام لها حس، لها ثقل، لها وزن، كما جاء في الحديث عند البخاري: ((يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْم الْقِيَامَة كَأَنَّهُ كَبْش أَمْلَح، فَيذْبَح بَين الْجنَّة وَالنَّار، وَيُقَال: يَا أهل الْجنَّة خُلُود بِلَا موت، وَيَا أهل النَّار خُلُود بِلَا موت)).

قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((والصلاة نور)): ولم يحدد -صلى الله عليه وآله وسلم- أي صلاة، فيدخل فيها الصلاة المفروضة وصلاة النافلة، الصلوات التي لم يفرضها الله سبحانه وتعالى على العباد من التطوعات سواء كانت من قيام الليل، سواء كانت صلاة الضحى، سواء كانت السنن الرواتب، إلى غير ذلك، كلها نور، نور للمؤمن في قلبه، نور في وجهه، نور يوم القيامة له، هذه هي الصلاة.

قال: ((والصدقة برهان)): لما كان في الصدقة نوع صعوبة ومشقة على الإنسان في إخراجها، في إخراج ذلك المال الذي هو بطبيعة البشر محبوب إليهم، قد فطروا على محبته، لما يخرجه في سبيل الله على الفقراء والمساكين وابن السبيل والمجاهدين، إلى غير ذلك، هذا قرينة وبرهان ودليل على صدق إيمان ذلك المتصدق، لأن تلك العبادة فيها مشقة، والعبادات التي فيها مشقة جعلها الله سبحانه وتعالى امتحاناً للمؤمنين، ليميز الخبيث من الطيب.

في مكة لم يُعرف المنافقون، لعدد من الأسباب، منها أن المسلمين آنذاك من المستضعفين، والأمر الآخر أنه لم تكتب ولم تفرض على المسلمين العبادات الشاقة التي يتميز بها الصادق من الكاذب، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة]، النفس البشرية طُبعت على كره القتال، فالقتال الشرعي امتحان ليميز الله سبحانه وتعالى به بين الصادق وبين الكاذب، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما سئل فقيل له: هل يفتن الشهيد في

قبره؟ قال: ((كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة))[١]. أي امتحان. كفى به امتحانًا لذلك الرجل.

كذلك الصدقة، كما جاء في حديث محمد بن مسلمة –رضي الله عنه وأرضاه–، كما في الصحيحين، لما قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله رسوله))، قال: أنا يا رسول الله، ثم بعد ذلك استأذن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يقول بعض المعاريض، فأذن له النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فلما ذهب وأراد أن يستلف من كعب، وكان هو وإياه على علاقة قبل الإسلام في الجاهلية، قال: "إن هذا الرجل قد أخذنا بالصدقة، وقد عنَّانا".

قوله "الرجل" هذا من المعاريض التي لا يصار إلى تكفير قائل هذا القول إلا إذا قصد ازدراء النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– واستنقاص النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وهذا الأمر لم يرده محمد بن مسلمة.

قال: عنّانا بالصدقة، أي أن هذه الفريضة من الفرائض الشاقة على المسلمين، وهذا حق، وقاله من باب أن (الحرب خدعة) كما قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ضبطها الحافظ ابن حجر بالفتح، والبعض قال الحرب خُدعة بالضم، كما جاء عند البخاري.

قال: ((والصبر ضياء)): الصبر ضياء للمؤمن، يصبر على:

طاعة الله تعالى أولًا، لأن طاعة الله تحتاج إلى صبر ومصابرة ومجاهدة للنفس، في الصيام يترك الملذوذات ويترك الوطء المباح والطعام والشراب، يصبر على ذلك لأجل الله سبحانه

---

[١] النسائي.

وتعالى، يصبر على القيام، يصبر على الصلوات المكتوبات، يصبر على الجهاد، يصبر على الحج، على العمرة، إلى غير ذلك.

ثانيًا: الصبر عن محرمات الله سبحانه وتعالى، فلا بد من صبر ومصابرة في ترك الشهوات، النبي ﷺ قال: ((حُفت النار بالشهوات، وحُفت الجنة بالمكاره)) [١]. الجنة تحتاج إلى بذل، تحتاج إلى صبر، تحتاج إلى مشقة، أما النار فهي طريق المترخصين، طريق الذين يتبعون أهواءهم فيفعلون كل ما يشتهون، كل ما يشتهون من لذات ومن محرمات ومن موبقات ومن مكفرات يفعلونه، فبالتالي يصل بهم ذلك الحال إلى النار -والعياذ بالله-.

ثالثًا: الصبر على أقدار الله المؤلمة، إن الله سبحانه وتعالى قد قسم البلاء على العباد، سواء كانوا من جملة المؤمنين أم من جملة الكافرين، الكل سيبتلى في هذه الدنيا، ولكن الفرق: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء]، الفرق: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

المؤمن يحتسب صبرًا لله سبحانه وتعالى على تلك الأقدار، على تلك المآسي، على تلك النوازل التي تنزل به، يحتسب الأجر عند الله سبحانه وتعالى، وكما جاء في الحديث: ((حتى الشوكة يشاكها)) يكون له بها أجر، وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)). كما جاء ذلك عند أحمد في مسنده.

قال: ((والقرآن حجة لك أو عليك)): فهذا القرآن الذي نقرأه آناء الليل وأطراف النهار، هذا القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، سيكون

---

[١] رواه البخاري ومسلم.

إما حجة لك أو عليك، إذا عملت بما في القرآن فهو حجة لك، وإذا لم تعمل به فهو حجة عليك، فصاحب القرآن إما غانم وإما غارم، لا وسط بينهما، إذا عمل به فهو غانم، وإذا لم يعمل به فهو غارم -والعياذ بالله-.

قال: ((كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمُعتقها أو موبقها)): فهذه الدار دار امتحان ودار بلاء ودار فتنة، يمتحننا الله سبحانه وتعالى، أنعتق أنفسنا من النار أم لا، نعمل الصالحات حتى ينجينا الله سبحانه وتعالى من عذابه ويدخلنا إلى جنته أم لا، فكلٌ طبيب نفسه..

سلوا أنفسكم وامتحنوها، سلوها قبل أن تسألوا يوم القيامة ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات]، لا بد أننا سنُسأل، ولا بد للسؤال من جواب، فأعدوا للسؤال جوابا، وللجواب صوابا، ولا يكون ذلك إلا بالعمل الصالح.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المعتوقين من النار، اللهم آمين.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضُري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)). رواه مسلم.

***

الشرح: هذا حديث عظيم، يبين قدرة الله سبحانه وتعالى، وعظمة الله سبحانه وتعالى، وجلاله وكبرياءه، واستغناءه عن خلقه أجمعين.

هذا الحديث هو حديث قدسي، الحديث القدسي هو الذي يرويه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– عن الله سبحانه وتعالى، أو يقول الصحابي قال رسول الله فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى، أو عن رسول الله فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى.

وبين الحديث القدسي وبين القرآن فروق عديدة، منها:

– أن القرآن كله متواتر، جاء إلينا بالتواتر، وأما الأحاديث القدسية فمنها المتواتر ومنها الآحاد ومنها من قبيل العزيز أو الغريب.

– والقرآن محفوظ كله من الزيادة أو النقص، أما الأحاديث القدسية فمنها الصحيح ومنها الضعيف، بل ومنها الموضوع.

– ومن الفروق أن القرآن متعبد بتلاوته، كما بين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن ((مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)) [١]. وليس كذلك في الأحاديث القدسية.

– والقرآن يقرأ في الصلاة ويجزئ في الصلاة، بل هناك من القرآن ما لا تصح الصلاة إلا به كسورة الفاتحة أم الكتاب، وهذا لا يكون في الأحاديث القدسية.

– ومن الفروق أن الله تعالى تحدى بالقرآن، وليس كذلك في الأحاديث القدسية.

– ومن الفروق عند بعض العلماء أنه لا بد من الوضوء والطهارة لمسِّ المصحف، والقائلين بذلك لم يشترطوا ذلك ولم يوجبوا ذلك في الأحاديث القدسية.

---

[١] صحيح، رواه الترمذي وغيره.

الله سبحانه وتعالى يقول في هذا الحديث القدسي: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا)): هذا حديث قدسي.. من اللطيف أن بعض المحققين الذين تطفلوا على تحقيق الكتب والمصنفات ممن لا يحسن في هذا الفن، لما سمع صاحب الكتاب يقول: قال الله تعالى: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي...)) قال في الحاشية: لم أجد هذه الآية في القرآن الكريم! فهذا من جهله.

هذا -كما أسلفنا- من الأحاديث القدسية، الله سبحانه وتعالى يخاطب جميع عباده، سواء كانوا عباده عن اختيار منهم (وهم أهل الايمان)، أم رغمًا عن أنوفهم (وهم الكفار)، جميع المخلوقات هم عباد لله سبحانه وتعالى.

((إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا)): فالله سبحانه وتعالى يستطيع أن يظلم -سبحانه وتعالى-، ولكنه نزه نفسه عن ذلك وحرم ذلك على نفسه، وهو القادر على كل شيء، فالله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدا.

فنحن نقول الله لا يظلم، عرفنا ذلك بما جاء من كلام الله سبحانه وتعالى في كتابه أو عن طريق رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وجعل هذا الظلم بيننا محرما، ولا فرق في تحريم الظلم بين الظلم الذي يقع على المسلم أو الذي يقع على الكافر، على المؤمن البر أو على الفاجر، على السواء، كله محرم في دين الله، لا يجوز الظلم لا لمسلم ولا لكافر، لا لبر ولا لفاجر، الظلم حرمه الله سبحانه وتعالى وجعله من أكبر الكبائر، كما ذكر ذلك أيضًا الإمام الذهبي -رحمه الله- في كتابه [الكبائر]، وساق عليه الأدلة الكثيرة.

ثم قال: ((يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته)): إلا من هداه الله سبحانه وتعالى هو الموفق، هو المهتدي، وأما من لم يشاء الله سبحانه وتعالى له الهداية فذلك الضال.

لذلك قال: ((فاستهدوني أهدكم)): أي اطلبوا مني الهداية، أهديكم وأوفقكم للهداية، بنوعي الهداية، هداية الرشاد، وهداية التوفيق، أن يبين الله سبحانه وتعالى لنا طريق الهداية الصحيح، الطريق المستقيم، الطريق الذي تركنا عليه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الكريم، وهداية التوفيق أن يوفقنا الله سبحانه وتعالى لسلوك ذلك الطريق، فهناك من الناس من يعلم الحق ولا يوفق لسلوكه، يعلم الهداية ولا يوفق لطرق باب الهداية؛ لذلك من الدعاء المثور (اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه).

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ((كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم)): فالله سبحانه وتعالى هو الرزاق، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات]، ففي السماء عند الله سبحانه وتعالى، هو الذي قدر الأقدار، هو الذي جعل الآجال، كذلك هو الذي جعل وقسم الأرزاق على العباد، مهما بذل الإنسان لكسب أمر ثم الله سبحانه وتعالى لم يشأ له ذلك الرزق، لن يبلغه بجده ولا باجتهاده، والعكس بالعكس، قد يكون الإنسان مريضًا طريح الفراش، ويأتيه الرزق من الله سبحانه وتعالى.

الشاهد، نحن لا بد أولًا أن نتوكل على الله سبحانه وتعالى، ونسأل الله سبحانه وتعالى الرزق، الرزق المعنوي والرزق الحسي، الحسي هو الطعام والشراب وغير ذلك، المعنوي هو رزق الإيمان، رزق حلاوة الإيمان، رزق العلم الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور الفاضلة التي بها النجاة يوم القيامة.

فنتوكل أولًا على الله سبحانه وتعالى في ذلك، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يهبنا ذلك، ثم نبذل الأسباب الشرعية الموصلة لذلك، ولا نبذل من باب قول البعض نأخذ بالأسباب، ثم يأخذ بالأسباب المحرمة -والعياذ بالله-، لا يُنال ما عند الله سبحانه وتعالى من الرزق بمعصية الله، بما حرم الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق]، يتقي الله في الأخذ بالأسباب الشرعية المشروعة، أما الأسباب المحرمة فهي ليست من تقوى الله سبحانه وتعالى في شيء، وإن كسب منها بعض الأموال إلا أنها لا تكون فيها البركة.

ثم قال في الحديث القدسي: ((يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)): فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهبنا كل ذلك، سواء كان الطعام أو الثياب، كذلك يدخل في مسألة الثياب الأمور المعنوية والحسية، أنه يكسوه بالإيمان والتقوى، ويكسوه بتلك الثياب التي يستر بها عورته وتكون له زينة وريشا في هذه الحياة الدنيا.

ثم ذكر مسألة الخطيئة، أن كل العباد يخطئ بالليل والنهار، ولكن الله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة والأوبة والرجوع إليه في كل حين، إلى أن تغرغر الروح وإلى أن تخرج الشمس من مغربها، عند ذلك فحسب لا تقبل التوبة، أما في غير ذلك فالتوبة مقبولة بشروطها المعروفة المقررة:

أولًا: الإقلاع عن ذلك الذنب، لا يكون هو في الوظيفة المحرمة ويقول أنا تبت من تلك الوظيفة المحرمة، لا بد أن يقلع عن ذلك الذنب، يخرج ويترك تلك الوظيفة المحرمة.

ثم يندم ويتحسر على ذلك الذنب.

ثم يعزم على أن لا يعود له، فإن عاد يجدد التوبة من جديد، كما جاء في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي،

فَقَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أذنَبَ عبدي ذَنبًا، فَعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: أذنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فَعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ)) (١).

هذه هي شروط التوبة فيما يتعلق بين المرء وربه.

أما ما يتعلق بين المرء والناس من حقوق الناس، يضاف إلى شروط التوبة شرطًا آخر، ألا وهو إرجاع حقوق الناس، إن كانت سرقة يرجع تلك الحقوق، إن كانت غيبة يستغفر لأولئك الذين اغتابهم في ذلك المجلس، يثني عليهم في المجلس الذي أساء لهم فيه، إلى غير ذلك.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى استغناءه عن الخلق جميعا، عن العباد جميعا، ليس الله سبحانه وتعالى بمحتاج لنا ولا لعبادتنا ولا إلى صدقاتنا وبذلنا وعطائنا لنصرة الدين، بل نحن من يحتاج إلى ذلك، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات].

فنحن من يحتاج إلى البذل لخدمة الدين، لأن كل ذلك سيكون يوم القيامة في ميزان حسناتنا، سيبين الله سبحانه وتعالى بإذن الله وجوه من يعمل الحسنات، من ينصر الدين في زمن غربة الدين، في زمن خذلان الدين، من ينصر هذا الدين الله سبحانه وتعالى سيرفعه يوم القيامة حينما يكون الإنسان أحوج ما يكون للأجر والثواب، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

يقول العلامة ابن القيم –رحمه الله– في الفوائد: "لَيْسَ العجب من قَوْله {يحبونه}، إِنَّمَا العجب من قَوْله {يُحِبهُمْ}. لَيْسَ العجب من فَقير مِسْكين يحب محسنا إِلَيْهِ، إِنَّمَا الْعجب من محسن يحب فَقِالعربيرا مِسْكينا".

قدم حب الخالق للمخلوقين على حبهم له، وهذا من الفضل لهم لو يشعرون، حيث أنهم أتوا في زمن غربة الدين، في زمن خذلال الدين، في زمن موضة الانتكاسات والتراجعات عن المبادئ الإسلامية وعن العقيدة الصافية الصحيحة، عند ذلك ﴿... يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ [المائدة]، وليس هو من كسب الإنسان وجده واجتهاده بل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فندعو الله سبحانه وتعالى أن يستعملنا ولا يستبدلنا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد].

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي ذر -رضي الله عنه- أيضا، أن ناسًا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قالوا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: ((أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة)). قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: ((أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)). رواه مسلم.

***

الشرح: هذا أيضًا فيه حب الصحابة -رضوان الله عليهم- وسعيهم ومنافستهم في الخير وفي الخيرات، جاء في بعض طرق هذا الحديث أن أولئك هم الفقراء من المهاجرين، هم الذين أتوا فسألوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك، يرون أن إخوانهم من الأغنياء من الذين تفضل الله سبحانه وتعالى عليهم بالغنى يفعلون أفعالهم من العبادات البدنية، يصلون كما نصلي، يصومون كما نصوم، إلى غير ذلك من العبادات البدنية التي يشترك فيها الأغنياء مع الفقراء، ولكنهم يفضلوننا ويزيدون علينا في أمر ألا وهو العبادات المالية، أنهم يتصدقون ولا نتصدق، وفي رواية يعتقون ولا نعتق، فدلهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على بعض الأمور التي هي أيضًا تدخل في جملة الصدقة، ولا تتطلب منهم مالا.

جاء في بعض الروايات كما في الصحيحين، أنه دلهم على التسبيح والتكبير والحمد لله سبحانه وتعالى دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة، بعد ذلك علم بذلك الأغنياء ففعلوا فعلهم، فقال –صلى الله عليه وآله وسلم– لما اشتكي له ذلك: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)).

في هذا الحديث الذي بين أيدينا يبين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بعض أصناف الصدقة التي بها قد يسبق المرء الأغنياء، لأن الغني قد لا يتصدق كل يوم، قد لا يتصدق في كل أوقات اليوم، في الصباح وفي المساء وفي الظهر والضحى وغير ذلك، لكن أنت بإمكانك أيها الفقير أن تفعل شيئًا من هذه الأمور التي جاءت في هذا الحديث في كل حين، في كل أوقات اليوم والليلة، فبذلك تسبق الأغنياء حينما يتصدقون بأموالهم.

بيّن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن من تلك الصدقات التي جعلها الله سبحانه وتعالى لهم: التسبيح ((في كل تسبيحة صدقة))، أن تقول سبحان الله، تنزه الله سبحانه وتعالى عن كل النقائص، هذا فيه صدقة.

كذلك التكبير، تكبير الله سبحانه وتعالى فيه صدقة، كذلك التحميد صدقة، كذلك التهليل أي أن تقول لا إله إلا الله صدقة، وهكذا.

وهذه الأمور منها ما يكون من قبيل الفرض ومنها ما يكون من قبيل النافلة، على حسب تلك العبادة الواردة فيها تلك التكبيرات أو التهليلات أو الحمد، إلى غير ذلك من هذه الصدقات التي ذكرها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

تأملوها هنا، قال: ((وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة)): عرف المعروف بـ(ال) تعريف، ونكر المنكر ((ونهي عن منكر صدقة)) دون تعريف؛ فدل ذلك على أن المعروف واحد، هو الإسلام، هو تعاليم الإسلام، وأما المنكر فيتنوع ويتلون ويتعدد، المنكرات

كثيرة، وهكذا السبيل والسبل، سبيل الحق واحد، وأما سبل الغواية والضلال فهي كثيرة جدًا لا حصر لها.

فبيّن النبي ﷺ أن الأمر بالمعروف يعد من جملة الصدقات، كذلك النهي عن المنكر يعد من جملة هاتيك الصدقات.

وفي ((بُضع أحدكم صدقة)): فرق بين البُضع بالضم، والبِضع، والبَضع.

أما البِضع بالكسر فهو العدد بين الثلاثة إلى التسعة تسمى بِضعا ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف]، أي بين ثلاث سنوات إلى تسع سنوات، قال بعض أهل التفسير: لبث سبع سنوات. كذلك قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: ((الإيمان بِضع وسبعون شعبة))، وفي رواية ((بِضع وستون شعبة))، أي بين الثلاثة والستين إلى التسعة والستين، بين الثلاث والسبعين إلى التسعة والسبعين، عدها بعض أهل العلم كالإمام البيهقي –رحمه الله– فأوصلها إلى تسعة وسبعين شعبة، والبعض جاوز ذلك من العلماء الذين صنفوا في شعب الإيمان، ذكروا هذه الشعب الرئيسية وذكروا وزادوا عليها شعبًا غيرها متولدة عنها.

وأما البَضع بالفتح فهو القطعة من الشيء، كما جاء في صحيح مسلم أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: ((وفاطمة بَضعة مني)) أي جزء مني –صلى الله عليه وآله وسلم–
.

وأما البُضع بالضم فهو الفرج.

بين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن الرجل يأتي زوجته أي بالجماع المشروع، فيكون له بها صدقة، فتعجب الصحابة –رضوان الله عليهم وأرضاهم–، كيف ذلك! فقال: ((أرأيتم إن وضعها في حرام)) أي وضع الشهوة في حرام. ((أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها

في الحلال كان له أجر)). فينبغي على المسلم أن يستحضر تلك المعاني في كل شيء، حتى في إتيانه لزوجته المشروع.

كما قال عمر –رضي الله عنه وأرضاه– فيما رواه الإمام الدارمي –رحمه الله– قال: (إني لأُكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله من صلبي نسمة توحده). تأملوا في استحضار النية، كيف أنه يريد أن يكثر سواد الموحدين.

كما قال –صلى الله عليه وآله وسلم– فيما رواه الإمام ابن ماجه: ((تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)).

وفي الحديث المتفق عليه الذي بوّب عليه الإمام البخاري –رحمه الله– في كتاب الجهاد من صحيحه، فقال: باب من طلب الولد للجهاد في سبيل الله. وأخرج فيه الحديث الذي ذكر لنا فيه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قصة سليمان عليه السلام، لما قال لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول إن شاء الله..

فهذا يدلك على أن الإنسان باستحضاره للنية الصالحة يحول العادة إلى عبادة.

ثم يدلك على أمر آخر ألا وهو الذي يسميه الأصوليون قياس العكس، في هذا الحديث دليل على صحة الاحتجاج بقياس العكس أو مفهوم المخالفة، بيّن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن الذي يفرّغ شهوته في معصية الله سبحانه وتعالى يكون له على ذلك وزر، والعكس بالعكس، الذي يفعل ذلك فيما أباحه الله له يكون له به صدقة، كما بيّن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فهذا يدلك على قياس العكس.

الحديث السادس والعشرون

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتُعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)). رواه البخاري ومسلم.

***

الشرح: بيّن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث أن كل سلامى وهي العظم وقيل المفصل في جسد الإنسان، وجاء في صحيح مسلم من حديث عائشة عد تلك المفاصل وأنها ثلاثمائة وستين مفصلا، وهذا الذي توصل إليه العلم الحديث في هذه الأيام.

على كل تلك العظام أو تلك المفاصل لا بد أن يشكر الإنسان تلك النعمة، على كل عظم في جسده صدقة، وهذا قد يستصعبه الإنسان في كل يوم، فرخص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذكر معانٍ كثيرة للصدقة، كما مر معنا بعض صور الصدقة التي عدها الإسلام من جملة الصدقات، كذلك في هذا الحديث ذكر بعض تلك الصدقات.

ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((تعدل بين اثنين)): سواء في الإصلاح بينهما، أو في الحكم بينهما، فهذا يعد لك به صدقة.

((وتعين الرجل)): أن تكون عونًا لإخوانك المسلمين، سواء كان ذلك في إعانتهم في السكنى أو في المركوب أو في غير ذلك، كل ذلك يعد من جملة الصدقة.

وذكر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن ((الكلمة الطيبة صدقة)): وأعظم ما تكون الكلمة طيبة هو الأمر المعروف والنهي على المنكر، فهو أطيب الكلمات، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة]، قال مجاهد: أي قولوا لهم لا إله إلا الله.

قال: ((وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة)): فخطاك في اليوم والليلة خمس مرات أو أكثر إلى الصلاة إلى المسجد في جماعة يعتبر لك ذلك من جملة الصدقات، لذلك بعض العلماء كالإمام النووي –رحمه الله– كان يرى تصغير الخطى في المشي حتى تعد أكثر، وحتى تكون صدقات أكثر.

((وتميط الأذى عن الطريق صدقة)): تميط الأذى عن الطريق أيضًا مما يعد لك من جملة الصدقات.

فكل ذلك من الأمور المتيسرة لك في اليوم والليلة، حتى تشكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليك أن وهبك تلك العظام وتلك المفاصل.

وجاء في بعض روايات هذا الحديث أن صلاة الضحى تكفي عن كل ذلك، يصلي الإنسان ركعتين في وقت الضحى لله سبحانه وتعالى، تسقط عنه كل تلك الصدقات التي تكون عليه، وتكون بعد ذلك ما جاء به من هذه الصدقات –وهي كثيرة– تكون من قبيل الأمور المستحبة والزائدة على تلك الصدقات التي تكون عليه شكرًا لتلك النعم التي وهبها الله سبحانه وتعالى.

ومن صور الصدقة كما جاء في بعض الأحاديث: ((وأن تلقى أخاك بوجه طلق صدقة))، كذلك جاء في حديث النبي ﷺ فيما رواه الامام مسلم، أنه قال: ((ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)).

الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان الأنصاري -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن البر والإثم، فقال: ((البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس)). رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد -رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: ((يا وابصة أخبرك، أو تسألني؟)) قلت: لا، بل أخبرني، فقال: ((جئتَ تسألني عن البر والإثم؟)). قلت: نعم. فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري، ويقول: ((يا وابصة، استفتِ قلبك، واستفتِ نفسك -ثلاث مرات-، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)). حديث حسن رويناه في مسند الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن.

***

الشرح: النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: ((البر))، وهو يعرف البر ها هنا، وفرق بين البِر والبَر والبُر.

البُر الطعام المعروف، أما البَر فهو كثير الخير، وهو من أسماء الله سبحانه وتعالى، والبِر هو الخير.

النبي ﷺ قال: ((البر حسن الخلق)): والإثم عكس البر، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة]، فذكر الله سبحانه وتعالى الإثم في مقابل البر، أمرنا أن نتعاون على البر والتقوى، ونهانا أن نتعاون على الإثم والعدوان.

بين النبي ﷺ أن ((الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)): طبعًا هذا في الرجل المستقيم، الرجل المؤمن، كهذا الصحابي الجليل -رضي الله عنه وأرضاه-، وليس في كل أحد، لأن هناك من الناس من لا يرفع بسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- رأسا، ولا يستحي من شيء، لا يستحي من مقارفة المحرمات، بل والموبقات، ويصرح بذلك، وربما يتفاخر بذلك، ويذكره علانية ولا يستحي من ذلك، هذا لا يقال في حقه ((استفت قلبك))، لا يقال ((الإثم ما حاك في النفس))، بل يقال ذلك في الرجل التقي النقي الذي يخاف الله سبحانه وتعالى، الذي يعظم الشريعة ويعظم تحكيم شريعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، كذلك الصحابي الذي قال له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك القول وحكى له هذا الحديث، وجعل قلبه علامة فيما لم يرد فيه نص واضح بيّن أنه من المحرمات، كمسائل النوازل ونحوها.

الإمام الذهبي -رحمه الله- يقول: وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل. وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو قد حل فيه فإن جبنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه.[١]

---

[١] تاريخ الإسلام للذهبي.

أولئك الذين يقدمون وجدهم وذوقهم وما تملي عليهم وساوس الشياطين على الكتاب والسنة، وهؤلاء هم غلاة الصوفية الذين يستدلون بالذوق ويجعلون الحق ما دلتهم عليه قلوبهم أو صدورهم وعكسه الباطل، ولو أتيتهم بكل دليل وبكل إسناد قالوا أنتم تروون عن الأموات ونحن نروي عن الحي الذي لا يموت –ويعنون ما يقذف الشيطان في صدورهم من خزعبلات–.

فالرجل الصالح المتقي الذي يتبع قال الله وقال الرسول، لكن أشكلت عليه بعض المسائل في النوازل –وما أكثرها اليوم– عليه أن يستفتي قلبه، وإن أفتاه الناس وأفتوه.

ففي هذا العصر كثرت الفتاوى الغريبة المريبة، فرجل يبيح تقبيل الشاب للشابة الأجنبية عنه، قال بحجة درء مفسدة أعظم وهي الوقوع في الزنا –والعياذ بالله–، وآخر يقول يجوز للمتدينين الدخول في البنوك الربوية، لكي لا يدخل أولئك الفساق فيزيدون في الربا على الناس، وثالث يقول (وهو ذلك المتدكتر طارق السويدان) يقول على المحجبات أن يدخلن في سلك التمثيل، لكي لا تدخل الفاجرات الفاسقات –والعياذ بالله–، وآخر يقول ويفتي بإرضاع الكبير، وآخر يقول بأن التدخين في نهار رمضان لا يفطر الصائم، وآخر يقول يجوز للاعبي الكرة في المنتخب أن يفطروا في نهار رمضان وهذه من الأعذار الشرعية! إلى غير ذلك من الفتاوى الغريبة المريبة، التي يصدق فيها ما قاله الشيخ العلامة عبد الرحمن الدوسري –رحمه الله–، يقول: بعض الفتاوى يصح ويحق فيها أن تقلب تاءها سينا.

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي نجيحٍ العِرباض بن سارية -رضي الله عنه- قال: صلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: ((أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيا، فإنه من يعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرا؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)). حديث صحيح، أخرجه أبو داوود والترمذي، وقال حديث حسن صحيح، وقال الحاكم حديث صحيح ليس له علة.

***

الشرح: لما تكلم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بتلك الموعظة البليغة الموجزة، سأله الصحابة -رضوان الله عليهم- أن يوصيهم بوصية عظيمة يعملوا بها ويسيروا على وفقها، فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((أوصيكم بتقوى الله)): التقوى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال.

((والسمع والطاعة)) وإن تأمر علينا عبد حبشي، وفي رواية ((وإن عبدًا حبشيا)).

والجمع بين هذا الحديث وبين حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان)) كما في الصحيحين، وكذلك قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((الإمامة في قريش))، وغير ذلك من الأحاديث التي نصت على ذلك، وإنما استدل أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- في سقيفة بني ساعدة واحتج على الأنصار بذلك لما قالوا للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، قال أبو بكر بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: ((الأئمة من قريش))، ابسط يدك يا عمر لكي أبايعك، فقال له عمر: بل ابسط يدك أنت أبايعك على خلافة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-. واتفق العلماء وأجمعوا -رحمهم الله- على أن من شروط الإمامة القرشية، كما ذكر ذلك القاضي عياض المالكي -رحمه الله- وغيره من الأئمة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة والخوارج.. يجمع بين تلك الأحاديث وذلك الإجماع، وبين هذا الحديث الذي بين أيدينا بأحد وجهين كما ذكر ذلك الإمام ابن رجب -رحمه الله- في [جامع العلوم والحكم]:

الوجه الأول: قال جاء في رواية الحاكم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((وإن أمّرت عليكم قريش حبشيًا مُجدّعًا، فاسمعوا له واطيعوا)). أي الإمام الأعظم أمّر في بعض الولايات حبشيا، لأن الخلافة تمتد لأصقاع كبيرة من ديار الإسلام، فإذا جعل ذلك الأمير ذلك الخليفة ذلك الإمام الذي هو من قريش جعل في بعض الولايات شخصًا من الذين يطلق عليهم ذلك، أو شخصًا من غير قريش، من أي القبائل العربية أو الأعجمية، فعند ذلك يجب السمع والطاعة لذلك الوالي الذي نصبه الخليفة الذي هو من قريش.

أما الوجه الثاني الذي ذكره الإمام ابن رجب -رحمه الله- قال: هذا من قبيل ضرب المثل الذي لا يصح إن وقع المثل، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الذي

رواه الإمام ابن ماجه –رحمه الله–: ((من بنى لله مسجدًا، ولو كمفحص قطاة، بنى الله له بيتا في الجنة)). القطاة هي طائر في حجم الحمام، النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ذكر أن من بنى لله مسجدًا كعش الطائر، وهذا لا يقع، وإنما ذكره من قبيل المثل، فكذلك هنا ذكر العبد الحبشي من قبيل المثال. هذه الوقفة الأولى مع هذا الحديث.

الوقفة الثانية: جاء في بعض روايات هذا الحديث كما عند الإمام مسلم –رحمه الله–: ((وإن أُمِّر عليكم عبدٌ مجدعٌ يقودكم بكتاب الله))، وفي رواية الإمام أحمد: ((ما أقام فيكم كتاب الله)) ، أي يحكم فيكم بكتاب الله تعالى، كما قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء]، قال الله تعالى ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال علي بن أبي طالب كما نقل ذلك عنه الإمام القرطبي –رحمه الله– وغيره: حق على الإمام أن يحكم في الرعية بكتاب الله وسنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا له ويطيعوا.

مفهوم المخالفة: إذا لم يقودونا بكتاب الله ولا بسنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، فليس بحق على الرعية أن يسمعوا له ويطيعوا.

الوقفة الثالثة: في ماذا يطاع الأمير المسلم الذي توفرت فيه شروط الإمامة الشرعية التي نص عليها الأئمة –رحمهم الله–، كأبي يعلى وكالإمام الماوردي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم –رحمهم الله– ..؟

المعتزلة ذهبوا إلى أن الأئمة الشرعيين إنما يطاعون في طاعة الله وفي طاعة رسوله ﷺ، بمعنى أنهم لو أمرونا أن نصلي نصلي، لو أمرونا أن نصوم نصوم، أمرونا أن نحج نحج، أمرونا أن نزكي نزكي، أمرونا غير ذلك من الأوامر الشرعية نقوم بها.

ولا يسلم لهم بذلك؛ إذ أن هذا تحصيل حاصل، فما مزية الإمام المسلم على بقية الناس إذا كان لا يطاع إلا في أمر الله وفي أمر رسول الله ﷺ؟!

لو قال لك أي شخص، وإن كان من عامة الرعية: صلِ، لا بد أنك ستصلي، صُم، لا بد أنك ستصوم، وهكذا.. فإذن لا مزية على قول المعتزلة للإمام المسلم.

بل الصحيح هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة بطاعة الأئمة المسلمين الذين توفرت فيهم شروط الإمامة، طاعتهم واجبة في كل شيء وفي كل صغير وكبير إلا في معصية الله سبحانه وتعالى، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

كما جاء عند أحمد في المسند، وعند الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه: ((إنما الطاعة في المعروف)).

فلو أمر الإمام الشرعي المسلم بالصلاة نصلي، وأصبحت تلك الصلاة واجبة علينا، لأمرين اثنين: لأمر الله تعالى أولًا، ولأمر هذا الأمير المسلم ثانيا.. إذا أمرنا الأمير المسلم الشرعي ألا نأتي إلى هذا المكان، أو ألا نسلك هذا الطريق من الطرق التي هي في ديار المسلمين، فإن طاعة هذا الأمير المسلم الشرعي الذي توفرت في شروط الإمامة واجب شرعي، من الواجبات الشرعية التي فرضها الله سبحانه وتعالى وفرضها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، كما جاء في هذا الحديث الأمر بالسمع والطاعة.

بيّن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن من سيعيش بعد وفاته -صلى الله عليه وآله وسلم- سيرى اختلافًا كثيرا، ولا سيما في هذه الأعصار التي طال عليها الأمد، هذه الأعصار المتأخرة التي نعيشها هذه الأيام ونواكبها ونحن فيها، فإن الفتن كثرت فيها، وإن الخلافات

التي بيّن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لنا أنها ستحدث قد حدثت وبكثرة، واشرأبت وبانت وظهرت، فما السبيل للخروج منها؟ وما السبيل للنجاة منها؟

الكل يقول بالكتاب والسنة، ولا يكفي ذلك فحسب، فإن فهمي للكتاب والسنة يختلف عن فهمك للكتاب والسنة، يختلف عن فهم زيد، يختلف عن فهم عبيد، فبأي الأفهام نفهم الكتاب والسنة؟

النجاة من ذلك أننا نأخذ بالكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، بفهم الصحابة -رضوان الله عليهم-، بفهم الخلفاء الراشدين المهديين -رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا- الذين نص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على اتباع سنتهم حتى لا نهلك، وبين ذلك وأكد ذلك، وقال أن نعض على ذلك بالنواجذ، وهي الأسنان المتأخرة، بين ذلك وشبهه بأمر حسي، نعض عليه بالنواجذ [كناية عن] شدة التمسك بها، التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، بسنة الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم وأرضاهم-، الخلفاء الراشدون -رضي الله عنهم وأرضاهم- أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، عمر الفاروق -رضي الله عنه-، عثمان ذو النورين -رضي الله عنه-، علي بن أبي طالب حيدرة -رضي الله عنه-.

البعض يقف عند هؤلاء الأربعة -رضي الله عنهم-، ودائمًا تسمعون أن خامس الخلفاء الراشدين هو عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا ما قيل إلا من قبيل المجاز لعدله وصلاحه وقيامه في الحكم على سنة أولئك الخلفاء الراشدين، فأُلحق بهم، لكن لا يسلم لذلك القول، بل خامس الخلفاء الراشدين بنص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، وبعض الأئمة من اجتهاده -رحمه الله-، كالإمام ابن حزم -رحمه الله- عد سادسًا من الخلفاء الراشدين، وهو عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه وأرضاه-
.

ثم بين النبي– صلى الله عليه وآله وسلم– أن كل إحداث في الدين (والمحدث هو الأمر الجديد)، كل زيادة في الدين تعد من البدع المنكرة المنهي عنها التي تورد صاحبها النار –والعياذ بالله–، وإن ظنها من الأمور الحسنة.

فعليكم كما قال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه– فيما رواه عنه الإمام الدارمي، قال: "عليكم بالعتيق". أي الأمر القديم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده.

"عليكم بالعتيق" فتتركون كل محدثة في الدين، كل زيادة في الدين، كل بدعة في الدين، نجتنب تلك البدع جميعا.

الفرق بين البدع المحدَثة والمصلحة المرسلة:

نقول: كل أمر كان المستقضي فيه قد وُجد على عهد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولم يفعله النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ثم أنت تأتي بعد ذلك فتفعله، فيكون من البدع المنكرة.

خذ على سبيل المثال: وُجد تاريخ ولادة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في حياته، كل سنة يمر على تاريخ ولادته، ولم يرد عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أنه أحيا ذكرى مولده –صلى الله عليه وآله وسلم–، بعد ذلك أتى العبيديون وهم الروافض الذين تسموا زورًا وبهتانًا كما ذكر ذلك الإمام السيوطي في تاريخ الخلفاء بالفاطميين، فأحدثوا وابتكروا بدعة إحياء المولد، لم يفعلها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولم يفعلها الخلفاء الراشدون –رضي الله عنهم وأرضاهم–، فلا نأتي نحن بعد ذلك –وإن ظنناها صلاحا وإن ظنناها خيرا– لا نأتي ونفعلها حتى لا نحدث في الدين ما ليس منه.

إذا لم يوجد ذلك الأمر في عهد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، وأتينا ففعلناه لمصلحة الدعوة، لمصلحة الدين؛ فهذا لا يعد من الأمور المحدثة في الدين، بل هو من المصالح المحدثة.

خذ على سبيل المثال: هذا اللاقط (مكبر الصوت)، أنا أتعبد الله بالكلام عبره وباستخدامه في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، الإمام يؤم الناس عبر هذا المكبر ويستخدم هذه المكبرات في صلاته، المؤذن كذلك، المقيم، الخطيب، فهل يعد ذلك من البدع المحدثة؟

لا، وإنما من المصالح المرسلة؛ لأن هذا لم يوجد على عهد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، استُخدم لمصلحة الدين، استخدم كي يكون وسيلة من وسائل خدمة الدين.

خذ مثلًا القتال والجهاد بهذه الأدوات وهذه الأسلحة الحديثة، هل هو من البدع المنكرة؟ –كما ظنه بعض الأحناف من العثمانيين في بداية ابتكار تلك البنادق وتلك الرواجم وغيرها من المدافع، كانوا يقاتلون بالسيوف، وأولئك الأعداء يقاتلونهم بالبنادق، ظنوا ذلك من الأمور المحدثة في الدين..

ليس كذلك، بل هذه من المصالح المرسلة، وأما ذكر السيف وذكر الرمح في حديث النبي ﷺ كما قال: ((وجعل رزقي تحت ظل رمحي))، وقال: ((الجنة تحت ظلال السيوف)) كما في الحديث المتفق عليه، وقال ﷺ: ((بُعثت بالسيف))، إلى غير ذلك.. فالسيف شعار للقتال، كما أن الخيل كذلك شعار للقتال وللجهاد في سبيل الله، كما أن العرب تضع أمورًا أخرى كشعار لأمور أخرى من العبادات ومن العادات ومن الأخلاق وغيرها.

الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني إلى الجنة ويباعدني من النار. قال: ((لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)). ثم قال: ((ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل)). ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: ((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟)) قلت: بلى يا رسول الله، قال: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)). ثم قال: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)) فقلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه، وقال: ((كُفَّ عليك هذا)). قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال- على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم؟)). رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

***

الشرح: معاذ بن جبل -رضي الله عنه وأرضاه- هو سيد العلماء، وترون من سؤاله هذا أنه من الأسئلة المتكررة المتقررة في أذهان الصحابة -رضوان الله عليهم-، دائمًا ما يسألون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عما يقربهم من الجنة ويباعدهم عن النار، ومر معنا أكثر من حديث [فيه] سؤال بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك السؤال

بتركيبات مختلفة وبعبارات متنوعة، فهم دائمًا نصب عينهم -رضي الله عنهم- السؤال عن الجنة والسؤال عما يقرب للجنة والسؤال عما يباعد عن النار.

جاء ذلك الرجل للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال له: لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، قال إذن ماذا تقول؟ قال: أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، فقال له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((حولها ندندن)) [١]. أي حول هذه المسألة نتكلم، عن الجنة وما يقرب للجنة وعما يباعد عن النار.

ويتبين من هذا السؤال وذلك الجواب من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الذي بين أيدينا ما يسمى بجواب الحكيم، كما جاء عند أبي داوود أن بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أتوا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فسألوه هل يتوضؤون من ماء البحر؟ فقال: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" [٢]. هم لم يسألوا عن ميتة البحر، بل سألوا عن ماء البحر، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- زادهم ما ينفعهم، إذ أنهم يركبون البحر فقد يضطرون إلى هذه المسألة، فبينها لهم -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا ما يسمى بجواب الحكيم.

---

[١] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ لرجلٍ: "ما تقول في الصلاة؟" قال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أَمَا والله ما أُحسن دَنْدَنَتَكَ ولا دَنْدَنَةَ معاذ. فقال: "حولها نُدَنْدِنُ". رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

[٢] سـأَلَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّا نركَبُ البحرَ ونحملُ معنا القليلَ من الماءِ، فإن تَوضَّأنا به عَطِشْنا، أفنتوضَّأُ من ماءِ البحرِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "هو الطَّهورُ ماؤهُ، الحلُّ ميتتُه". أخرجه أبو داوود، وابن ماجه، وأحمد باختلاف يسير، والترمذي، والنسائي واللفظ لهما.

من يطالع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله رحمة واسعة- يجد هذا الأمر جيدًا، حيث أنه دائمًا ما يتطرق لكل ما يتعلق بما حول المسألة المسؤول عنها وتفريعاتها والشبهات التي تدار حولها، فيفنّد جميع تلك الشبهات، وهذا ما يسمى بجواب الحكيم، أن تزيد على السائل ما ينفعه، أو ما تظن أنه سينفعه ويتعلق بهذه المسألة.

فمعاذ -رضي الله عنه وأرضاه- سأل النبي ﷺ عن أمر يدخله للجنة ويباعده من النار، فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه))، فهذا الأمر من المسائل العظيمة، لكن يكون الأمر يسيرًا بتوفيق الله سبحانه وتعالى له وتسديده، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل]، فالله سبحانه وتعالى هو الذي ييسر العباد، وييسر لهم طريق الرشاد، ييسر عليهم لهم الهداية، ((استهدوني أهدكم)) كما جاء في حديث أبي ذر من الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى.

وطريق الإسلام فيه بعض الأمور الشاقة وفيه بعض التكاليف الشاقة، فينبغي أن نسأل الله سبحانه وتعالى التيسير كما جاء عن نبي الله موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دين الله سبحانه وتعالى، فاحتاج موسى عليه السلام أن يسأل الله سبحانه وتعالى تيسير الأمر لما حثه وأمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب ويجابه فرعون وينصحه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

وكان أيضًا مما جاء في السنة من دعاء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لله أن ييسر له الأمور.

فلا بد للمسلم أن يسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق، يسأل الله سبحانه وتعالى الرشاد، يسأل الله سبحانه وتعالى التيسير.

ذكر له في إجابة سؤاله: ((أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا))، فلا يكفي عبادة الله سبحانه وتعالى بل لا بد من عبادة الله وحده، ألّا نعبد الله ونعبد معه غيره، بل لا نعبد إلا الله.

وهذا هو مقتضى شهادة التوحيد (أن لا إله إلا الله) معنى ذلك لا معبود بحق إلا الله، هناك من الآلهة والمعبودات التي تعبد لكن بغير حق، ولكن لا معبود بحق إلا الله.

ثم ذكر له ﷺ بقية أركان الإسلام التي مرت معنا في غير ما حديث، كحديث جبريل الطويل وغيره.

ثم زاده النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: ((ألا أدلك على أبواب الخير؟)) فللخير أبواب، وللخير من يدل عليه من الناس، كما جاء في الحديث أو في الدعاء المأثور أن يسأل الإنسان ربه أن يجعله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، ولا يجعله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير.

فللخير أبواب، والباب الذي يلج منه الإنسان دخولًا وخروجًا، ويستخدم في الفقه وفي أبواب الإسلام بمعنى المسائل.. باب كذا أي مسألة كذا، لم يصح في الباب شيء أي لم يصح في هذه المسألة شيء، وهكذا.

النبي ﷺ من باب حث معاذ على بعض الأمور ذكر له هذا الترغيب في بعض أبواب الخير، فقال له: ((الصوم جنة)) أي ساتر وواق من معاصي الله سبحانه وتعالى، وبالتالي يقيه من عذاب الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فهو واق له في الدنيا وواق له في الآخرة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة] الإمام ابن العربي المالكي -رحمه الله- في كتابه [أحكام القرآن] ذكر في معنى قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عدة معان، منها:

لعلكم تتقون الشهوات والمحرمات، فيكون الصوم لكم جُنة بهذا المعنى، أي ساترًا من هذه المحرمات.

فالجِن والمجن هو الستر، لذلك سمي المجن وهو الواقي الذي يضعه المقاتل على صدره ونحو ذلك، أي أنه يستر جسده من ضربات السيوف.

سمي الجِن بالجن لأنهم ممن سُتر عنا وحجبوا عنا، وسميت الجنة بالجنة كذلك لأن أشجارها متراصة تستر من تحتها من يستظل بظلها، إلى غير ذلك.

فالصوم جنة أي ساترًا وواقيًا من ارتكاب المعاصي، وبالتالي بعد ذلك حينما يكون المسلم متقيًا لمعاصي الله سبحانه وتعالى يؤدي به ذلك الصيام إلى أن يكون له يوم القيامة ساترًا من عذاب الله ومن نار جهنم، كما جاء في بعض الأحاديث أن الصوم جُنة كجنة المقاتل [(١)]، أو في بعضها ((الصيام جُنة وحصن حصين من النار)) [(٢)]. هذا المعنى الأول الذي ذكره هو الإمام ابن العربي -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعند أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان -رحمهم الله-: ((الصيام جُنَّة من النار، كجنة أحدكم من القتال)).

(٢) رواه أحمد والبيهقي.

قال معنى آخر: ﴿تَتَّقُونَ﴾ بمعنى أن الصوم يضعف الشهوة لدى الإنسان، عدم الطعام عدم الشراب يضعف الشهوة عند الإنسان، وبالتالي لا يعصي الله سبحانه وتعالى ولا يرتكب المعاصي، لذلك جاء في حديث عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه– كما في الصحيحين، قال: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء)). أي وقاية.

قال: ((الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار)): فبين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن الصدقة يكفر الله سبحانه وتعالى بها السيئات والخطايا التي يقع فيها ابن آدم، كما يطفئ الماء النار، فشبه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الصدقة وما يمحو الله سبحانه وتعالى بها من الخطايا بالماء في إطفائه للنار.

ثم قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((وصلاة الرجل من جوف الليل))، قال: "ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾": أي في الثناء على من يقوم من الليل.

تأملوا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– حث معاذ على قيام الليل، كذلك قال –صلى الله عليه وآله وسلم– لعبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–: ((نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل))، فما ترك عبد الله –رضي الله عنه– قيام الليل بعد ذلك أبدًا حتى توفاه الله.

لذلك كان الصحابة يتعلمون لكي يعملون، وليس فقط من باب الزيادة في المسائل والتفقه دون عمل، هذا هو دأبهم، كانوا يتعلمون ليعملون، فعبد الله بن عمر –رضي الله عنه وأرضاه– لما سمع من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ذلك الثناء وحثه على قيام الليل لم يترك قيام الليل بعد ذلك.

وكما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أن ((قيام الليل دأب الصالحين قبلكم))، وجاء عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس)).

وفي هذا الحديث في قول النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((وصلاة الرجل في جوف الليل)) أي وسط الليل، قال: "ثم تلا": وفي ذلك الرد على من يقول من الدعاة (قال الله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ثم يتلو الآية، لم يكن هذا من هدي النبي ﷺ في الاستشهاد والاستدلال بالآيات، بل مباشرة يقول قال الله تعالى، أو يتلو قول الله سبحانه وتعالى دون أن يقول قال الله تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلا بد إن أراد أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أن يجعل الاستعاذة قبل أن يقول قال الله تعالى.

ثم قال ﷺ: "((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟)) قلت: بلى.": أي معاذ –رضي الله عنه–، يحب ذلك، يحب أن يستزيد من الخير وخاصة فيما يتعلق بدينه.

قال: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)): رأس الأمر الإسلام، فالإسلام شرط صحة لجميع الأعمال كما ذهب لذلك الجماهير من العلماء، المالكية والشافعية والحنابلة، لا يقبل الله سبحانه وتعالى من الأعمال إلا إذا كانت من المسلم، أما لو كانت من الكافر أو المشرك فيجعلها الله سبحانه وتعالى هباءً منثورا ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان].

والكفار مخاطبون بفروع الشريعة، ولكن لا تُقبل منهم تلك الفروع إلا إذا تلفظوا بالشهادتين ودخلوا في الإسلام والتزموا به، بعد ذلك يقبل الله سبحانه وتعالى منهم بقية الأعمال الصالحة، أما وهم على الكفر فلو فعلوا بعض الصالحات لا تقبل منهم.

هناك بعض الخادمات من الدول الكافرة كالهند ونحوها في بعض دول المسلمين تصوم مع المسلمين، تصوم تلك الخادمة الكافرة مع المسلمين شهر رمضان، لا يقبل ولا يصح منها ذلك الصيام؛ لأنها على الكفر، والإسلام شرط صحة لجميع الأعمال، قال النبي ﷺ: ((رأس الأمر الإسلام))، فشبه الإسلام بالرأس، الرأس من الجسد لو قطع الرأس ولو كان الجسد مفتول العضلات لا ينفع، فهو جثة هامدة بغير الرأس، كذلك الإسلام من سائر الأعمال الصالحة، لا تقبل سائر العبادات من أحد إلا إذا كان من المسلمين، أما إذا كان من الكافرين أو كان من المشركين فلا تقبل منه تلك الأعمال.

من نقض إسلامه ببعض نواقض الإسلام لا تقبل منه ولا تصح منه بقية الأعمال الصالحة، لأن للإسلام نواقض، من ارتكب بعض تلك النواقض خرج من الإسلام، فلا ينفع بعد ذلك كثرة صلاته ولا كثرة صيامه مع سبه لله مثلًا، مع سبه للرسول ﷺ مثلًا -والعياذ بالله-، ذلك الحلاج كفره العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره، كفروا الحلاج مع أن الحلاج كان يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة لله تعالى.. لا تنفعه تلك العبادات وهو لم يأتِ برأس الأمر (وهو الإسلام)، لا تصح منه تلك العبادات إلا إذا أتى برأس الأمر وهو الإسلام.

ثم ذكر النبي ﷺ أن عمود الإسلام الصلاة، فالصلاة هي العمود من الإسلام، من خيمة الإسلام، كل خيمة لا تقوم إلا بالعمود، أما إذا سقط العمود تسقط الخيمة، كذلك إسلام المرء لو كان تاركًا للصلاة ضاع إسلامه وسقط إسلامه، وكما قال عمر (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة). لمن ضيع الصلاة.

فهذا من جملة الأحاديث التي يستدل بها على مذهب من ذهب من العلماء –رحمهم الله– إلى كفر تارك الصلاة، حيث أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بين أن الصلاة هي عمود الإسلام، عمود الأمر.

ثم ذكر –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((وذروة سنامه الجهاد)): وكما قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– إذا ذُكر الجهاد في الكتاب أو في السنة، أو ذُكر لفظ "في سبيل الله" في الكتاب أو في السنة، فإنما يراد به قتال الكفار.

إذا أُطلق لفظ الجهاد أو لفظ سبيل الله سواء كان في الكتاب أو في السنة، فلا يراد به إلا القتال، أما إذا قُيد فقيل جهاد اللسان أو نحو ذلك فهو إلى ما قُيد له.

والنبي ﷺ سمى الجهاد والقتال ذروة سنام الإسلام، والذروة هي أعلى شيء في الأمر، ذروة سنام الجمل أعلى شيء في الجمل، لذلك قال بعض أهل العلم الجهاد هو سقف الإسلام، يبنى الإسلام على أركانه، ثم يكون سقف الإسلام هو الجهاد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– لما استقرأ نصوص الكتاب ونصوص السنة، قال أكثر النصوص في الكتاب والسنة إنما جاءت في الصلاة والجهاد.

نقول وما ذاك إلا لأن الصلاة هي عمود دين الفرد، وأما الجهاد فهو عمود دين الأمة، لا عزّ للأمة إلا بالجهاد في سبيل الله.

النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يذكر في الحديث الذي رواه ابن عساكر وصححه في موضع آخر، قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من عبادة ستين سنة)).

تخيلوا! رجل يصوم ويقوم، ليل نهار، يذكر الله سبحانه وتعالى ستين سنة، قيام ساعة في الصف أي في القتال في سبيل الله ليست تعادل تلك السنوات من العبادة، بل خير من تلك العبادة جميعها، خير من تلك السنوات التي قضاها في محرابه يتنسك ويعبد الله سبحانه وتعالى، ساعة واحدة في الصف في القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى..!

ذلك الرجل الذي أتى إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في الصحيحين عند البخاري ومسلم، قال: دلني على عمل يعدل الجهاد. ما قال له أفضل من الجهاد، قال يعدل الجهاد، أي يساوي الجهاد، قال له -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أوتي الجوامع الكلم، الذي يوحى إليه من ربه.. قال له: ((لا أجده)).

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يجد من الأعمال الفاضلة والعبادات الصالحة ما يساوي الجهاد، فضلًا عن أن يكون أفضل من الجهاد في سبيل الله.

وهذا يبين لك خطأ وخطل الكثير من الدعاة اليوم، الذين يجعلون الكثير من العبادات أفضل من الجهاد في سبيل الله، كل شيء يجعلونه أفضل من الجهاد في سبيل الله، بل ليس العبادات بل حتى العادات، سمعنا بعضهم يقول محافظتك على وظيفتك أفضل من الجهاد في سبيل الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا عاد مريضًا كما عند أحمد في مسنده وأبي داوود في سننه، يقول: ((اللهم اشفِ عبدك ينكأ لك عدوًا، أو يمشي لك إلى صلاة)).

فهذه هي وظيفة المسلم، الصلاة والجهاد في سبيل الله، دائمًا ما يقرن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الصلاة مع الجهاد، وأكثر نصوص الكتاب والسنة في الصلاة وفي الجهاد، لأن الصلاة -كما أسلفنا- عمود دين المرء (الفرد)، والجهاد عمود دين الأمة.

ثم ذكر له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من باب الزيادة في الفائدة أمر اللسان وعظم ما يتكلم به المرء، لذلك قام أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- فمسك لسانه وقال: (هذا الذي أوردني الموارد). وكما مر معنا من الحديث المتفق عليه: ((من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيرًا أو ليسكت))، وفي رواية ((أو ليصمت)).

الحديث الثلاثون

عن أبي ثعلبة الخشاني جُرثوم بن ناشر -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيانٍ فلا تبحثوا عنها)). حديث حسن. رواه الدارقطني وغيره.

***

الشرح: في هذا الحديث نعلم أن المشرع هو الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى هو الذي يحرم الحرام وهو الذي يبيح المباح، وهو الذي يفرض الفرائض، إلى غير ذلك، لا ينازعه في تلك الخاصية أحد، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف]، فالله سبحانه وتعالى كما أن له الخلق لا ينازعه في الخلق أحد، كذلك له الأمر (وهو التشريع) لا ينازعه في ذلك أحد، من ادعى أنه هو الخالق لا يمتري أحد في كفره، كذلك من يدعي أنه هو المشرع أو له حق التشريع المطلق من دون الله سبحانه وتعالى لا

يشك في كفره، لأنه نازع الله في خاصية من خصائصه، من خصائص الربوبية، ألا وهي التشريع.

فالله سبحانه وتعالى فرض فرائض، فينبغي على المسلم ألّا يضيع تلك الفرائض، ألّا يهمل تلك الفرائض، ألّا يقصر في أداء تلك الفرائض، وحرّم أمورًا فلا نقترف تلك الأمور المحرمة التي حرمها الله سبحانه وتعالى في كتابه أو على لسان رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

((وسكت عن أشياء رحمة لكم)): فالله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم بعباده.

((رحمة لكم غير نسيان، فلا تسألوا عنها)): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم]، فالله سبحانه وتعالى منزه عن النسيان.

وأما النسيان في قول الله تعالى في أكثر من آية ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ذلك هو نسيان الترك في المقابل وليس الذهول، من ترك حدود الله، من ترك أوامر الله سبحانه وتعالى؛ الله سبحانه وتعالى يتركه، الله سبحانه وتعالى لا يعطف عليه، لا يرأف به، لا يدخله دار رحمته.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ الله سبحانه وتعالى ترك بعض الأمور لم يذكرها في كتابه، لم يذكرها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته، والذي قرره الفقهاء -رحمهم الله- أن الأصل في الأشياء الإباحة، الأصل في العادات الإباحة، الأصل في المعاملات الإباحة، فلا يُصار إلى التحريم إلا بدليل، فمن قال لك أن شرب العصير من المحرمات، قل له أين الدليل على ذلك؟ إن قال لك أنت قل لي ما الدليل على إباحة عصير التفاح ونحو ذلك؟ تقول له الدليل على جواز ذلك عدم وجود الدليل.

من أراد أن يحرم تلك الأمور فليأتنا بدليل من كتاب الله أو سنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، إذا لم يأتوا بالبرهان فهم إذن من الكاذبين، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، في العادات الإباحة، في المعاملات الإباحة.

لكن العبادات الأصل فيها التحريم كما مر معنا من حديث عائشة –رضي الله عنها وأرضاها–: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، فلا يقول رجل لنا أن فعل كذا وكذا، أن تصلي كذا وكذا ركعة بهذا المقدار بهذه الكيفية في هذا الوقت من العبادة، نقول له أين الدليل على هذه العبادة؟

فلا نتعبد الله سبحانه وتعالى إلا بما شرع سبحانه وتعالى وبما بينه لنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

فمما يؤخذ من هذا الحديث القاعدة المشهورة: (الأصل في الأشياء الإباحة).

الحديث الواحد والثلاثون

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: أتى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- رجل، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك)). حديث حسن. رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة.

***

الشرح: في هذا الحديث سؤال هذا الرجل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن بعض الأعمال التي تحببه من الله سبحانه وتعالى، ثم عرج بعد ذلك على الأعمال التي تحببه من الناس.

وفي الحقيقة من أحبه الله سبحانه وتعالى حبب له خلقه، كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري، أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ))، وجاء في حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: ((من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)).

في هذا الحديث قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((ازهد في الدنيا يحبك الله)): الدنيا سميت بذلك لدنوها، لأمرين: أولًا لأنها دنيا بالنسبة للآخرة في المرحلة الزمنية، فهي تأتي في المرحلة الزمنية قبل الآخرة، فهي دنيا والآخرة قصوى، تأتي بعد ذلك.

وسميت بالدنيا لأنها في المنزلة بالنسبة للآخرة هي دنيا، هي سفلى، وأما الآخرة فهي دار الخلود، إما في الجنة نعيم لا ينفد، وإما في النار –والعياذ بالله–.

قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((ازهد في الدنيا يحبك الله)): الزهد في الدنيا الترفع عنها وعدم الاهتمام الزائد بها، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، فكأن المؤمن من شدة حرصه على الآخرة ومن شدة إقدامه على طاعة الله سبحانه وتعالى يذهل عن الدنيا وعن نصيبه منها، فاحتاج إلى التذكير بنصيبه من الدنيا ألا ينساها.

الآن –ولا حول ولا قوة إلا بالله– قد يقال للبعض ولا تنس نصيبك من الآخرة، لأنه منشغل بكليته في الدنيا وفي حطام الدنيا الدنيئة –ولا حول ولا قوة إلا بالله–.

(اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)، فيدل ذلك على أن نزهد في الدنيا وفي المقابل لا نترك الدنيا بكليتها، أي نتكسب ونعمل في الأعمال المباحة المشروعة التي هي من الأخذ بالأسباب.

ذلك الرجل الذي سئل عنه الإمام أحمد أنه يزعم أنه يتوكل على الله سبحانه وتعالى ثم يحج البيت الحرام دون أن يأخذ الزاد معه ويخرج مع القافلة، يقول أنه يتوكل على الله، فقال الإمام أحمد ذلك يتوكل على القافلة وليس على الله، لو كان يتوكل على الله لخرج لوحده.. هل يستطيع أن يخرج لوحده دون أن يتزود بالزاد؟!

ففرق بين التوكل وبين التواكل، التواكل هو ترك الأسباب، أما التوكل فهو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

لذلك ذكر الإمام الذهبي -رحمه الله- في سير أعلام النبلاء في المجلد السابع عن سفيان الثوري -رحمه الله-، أنه رآه بعض تلامذته في السوق عنده صرة من مال، فقال له ذلك التلميذ: أعوذ بالله، ما هذا؟! فقال له سفيان الثوري: اسكت، لولاها لتمندل بنا هؤلاء الملوك.

أي لولا هذا الكسب المباح الذي نقوم به فنكسب المباح من رزق الله سبحانه وتعالى لاحتجنا إلى الملوك، وبالتالي رقعنا لهم، ودلسنا الدين تمشية لأهواء الملوك، عند ذلك يستخدمنا الملوك كالمنديل يزيلون به ويمتخطون به الأوساخ ونحو ذلك.

فيتبين لك من ذلك كله بطلان ما ذهب إليه الصوفية والطرقية من عدم التكسب المباح.

بل ذهب الإمام أبو حامد الغزالي -وتعلمون أن الإمام أبا حامد مر بأطوار في حياته، ثم ختم له على السنة بفضل الله سبحانه وتعالى أن مات وصحيح البخاري على صدره- ذهب أبو حامد الغزالي في كتابه [إحياء علوم الدين] بوب بابًا في آداب التسول والمتسولين، يؤصلون ويحثون على سؤال الناس -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، والتسول في الطرقات -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، يقولون ذلك فيه منفعتان، المنفعة الأولى أنك تنشغل بكليتك في عبادة الله سبحانه وتعالى وفي الذكر ولا تلتفت للعمل، قالوا والمنفعة الثانية أنك بسؤالك للناس تجعل الناس يتصدقون عليك وبالتالي يحصلون على الحسنات -ولا حول ولا قوة إلا بالله- على ذلك الفهم.

لذلك أكد ذلك النبي ﷺ في الشق الثاني من الحديث ((وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك)): حينما تزهد فيما عند الناس بما رزقك الله سبحانه وتعالى وبما وهبك الله سبحانه وتعالى، وإن كان قليلًا، وإن كان يسيرا؛ يحبك الناس، لأن الناس بطبيعتهم لا يحبون من يتطفل عليهم، لا يحبون من يكثر مساءلتهم وسؤالهم الأموال والحاجات ونحو ذلك.

الحديث الثاني والثلاثون

عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لا ضرر ولا ضرار)). حديث حسن. رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا. ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن عمر ابن يحيى عن ابيه عن النبي ﷺ؛ فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضا.

***

الشرح: هذا أصل عظيم، وقاعدة من القواعد الكبرى التي اتفق عليها الأئمة رحمهم الله (لا ضرر ولا ضرار)، وبعضهم يعبر عنها بقولهم (الضرر يُزال)، وهذا أمر مشروع جاء في الإسلام.

((لا ضرر ولا ضرار)): اختلف شراح الحديث في معنى ذلك، هل لا ضرر ولا ضرار للتأكيد والتوكيد فهما بمعنى واحد، أم يختلف المعنى، ثم اختلف القائلون بأن المعنى يختلف، فقال بعضهم "لا ضرر" أي على النفس، "ولا ضرار" أي بالغير. وقال بعضهم "لا ضرر"

الاسم، "ولا ضرار" الفعل، يعني "لا ضرر" نفي حقيقة هذا الضرر، "ولا ضرار" أي نفي إنزال ذلك الإضرار. وقال بعضهم "لا ضرر" بمعنى أنك تضر غيرك لتجلب منفعة لك، "ولا ضرار" أي أن تضر غيرك وإن لم تنتفع أنت. فهذه هي بعض المعاني التي ذكرها العلماء في التفريق بين الضرر والضرار.

وعلى كل فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء]، فنفى الضرر في ذلك، والدَّين أهم من الوصية، فقدم الله سبحانه وتعالى الوصية على الدين لأن الدين هناك من يطالب به من الخلق، أما الوصية فلا يطالب بها أحد، فالله سبحانه وتعالى نفى الضرر والإضرار في الوصية.

لذلك جاء في الحديث، روي عن أبي هريرة مرفوعًا كما عند الترمذي: ((إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار)). والعياذ بالله.

وقال عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–: الإضرار في الوصية من الكبائر.

والإضرار في الوصية يكون بأحد أمرين: إما أن يوصي لبعض ورثته، ولا وصية لوارث كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داوود ((لا وصية لوارث))، فيوصي لبعض ورثته إضرارًا بالبقية، أو أنه يوصي بأكثر من الثلث لغير الورثة، والنبي ﷺ يقول: ((الثلث والثلث كثير)). فهذا مما جاء في بعض صور المضارّة والإضرار المنهي عنه في الإسلام.

وكان في الجاهلية الرجل حينما يريد أن يضر زوجته يطلقها، فإن أوشكت على انتهاء العدة يراجعها، وهكذا الثانية والثالثة والرابعة والخامسة بغير عد، فجاء الإسلام وحدد الطلاق

وقيده بثلاث طلقات، فالضرر والإضرار منهي عنه في الإسلام، ومنه القاعدة المجمع عليها الكبرى من قواعد الشريعة (لا ضرر ولا ضرار) والبعض يعبر بقولهم (الضرر يُزال).

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: ((لو يُعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم، ولكن البينة على الُمدَّعي، واليمين على من أنكر)). حديث حسن. رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين.

***

الشرح: هذا حديث وأصل أصيل في مسألة القضاء والحكم بين الناس، ولا سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه قيل وقال، وكثرت فيه الإشاعات، وكثر فيه كلام من يحسن ومن لا يحسن، وكلام الفساق -أعاذنا الله وإياكم منهم ومن كلامهم وباطلهم وإشاعاتهم-، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات].

فلا بد من التبين، لا بد من التثبت، لا سيما فيما ينشر في وسائل الإعلام المختلفة في هذه الأيام، منها المقروء ومنها المسموع ومنها المرئي، ينشر أن فلانًا قال كذا وكذا، أن فلانًا -لا سيما من الصالحين، لا سيما من المجاهدين- فعل كذا وكذا، ثم نصدق -ولا حول ولا قوة إلا بالله- دون بينة ودون تثبت كما أمرنا الله سبحانه وتعالى.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذكر في الحديث: ((وَكَرِه لكم)): أي أن الله سبحانه وتعالى ((كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)) كره ها هنا بمعنى حرّم، سواء، لا فرق بين التحريم وبين الكراهة عند السلف المتقدمين، ثم نشأ في الاصطلاح التفريق بين الكراهة والتحريم كما تعلمون في اصطلاح الفقهاء.

فلا نأخذ القول على عواهنه ونشارك في نشره دون بينة ودون تثبت.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديث ابن عباس هذا بين لنا أن البينة على المدعي، كل من يدعي على شخص بدعوى لا بد أن يثبت ذلك بالبينة، البينة ليست ما يتوهم الناس أنه كُتب في الجريدة الفلانية فهو إذن بينة!

البينة: إما بشهادة العدول، ولها أنصبة، وإما بالاعتراف، وكما قيل الاعتراف سيد الأدلة.

فإن اعترف الشخص وأقر على نفسه بأنه فعل كذا وكذا، فهذه من البينة، إن لم يقر وأقسم بالله تعالى أنه لم يفعل ذلك، ولم يستطع ذلك المدعي أن يأتي بالبينة على تلك الدعوى، فدعواه باطلة، والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء.

الحديث الرابع والثلاثون

عـن أبي سـعيد الخـدري -رضـي الله عنـه- قـال: سمعـت رسـول الله -صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم- يقـول: ((مـن رأى مـنكم منكـرًا فليغـيره بيـده، فـإن لم يسـتطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)). رواه مسلم.

***

الشرح: أصل هذا الحديث كما جاء عند مسلم، أن صلاة العيد -كما تعلمون- الصلاة قبل الخطبة، بعكس صلاة الجمعة، ولا يزال ذلك الأمر حتى جاء مروان بن الحكم، فصعد المنبر قبل الصلاة، فقام إليه رجل، وقيل هو نفسه الراوي أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه وأرضاه-، فضربه مروان بيده وقال إليك عني، وصعد، فقال له ذلك الرجل: لقد غيرتم. أي خالفتم سنة -النبي صلى الله عليه وآله وسلم-، فقال أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه-: أما هذا فقد أدى الذي عليه، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: ((من رأى منكم منكرًا...)) وساق هذا الحديث.[١]

***

[١] هنا ينتهي التسجيل الصوتي للدرس.

أسئلة الحضور [١]

السؤال: يقول الشيعة كيف نأخذ الدين ممن لم يرقب في أهل البيت إلًّا ولا ذمة بقتلهم وعزلهم عن الخلافة، كمعاوية ويزيد وغيرهم..؟

الجواب: طبعًا هذا خلط، فيزيد ليس من الصحابة ولا نأخذ منه الدين، يزيد بن معاوية ولد في زمان وخلافة عمر -رضي الله عنه- بالاتفاق، ولأهل السنة والجماعة في يزيد ثلاثة أقوال، القول الأول: هو حب يزيد، وهذا الذي ذهب إليه الإمام الغزالي وغيره.

والمذهب الثاني الذي هو من مذاهب أهل السنة والجماعة: بغض يزيد ولعنه، وهذا الذي ذهب إليه الإمام ابن الجوزي -رحمه الله رحمة واسعة-، وصنف رسالة في لعن يزيد.

المذهب الثالث من مذاهب أهل السنة في يزيد: هو عدم حبه وعدم بغضه، التوقف فيه. وهذا هو مذهب الإمام أحمد -رحمه الله رحمة واسعة-، لما سئل عن يزيد قال لا نحبه ولا نسبه. هذا هو مذهب التوسط، مذهب الإمام أحمد -رحمه الله- في يزيد وفي أمثال يزيد.

يزيد من التابعين، ولم يكن من الصلحاء كما ذكر الإمام الذهبي -رحمه الله- في سير أعلام النبلاء في المجلد العاشر أو الحادي عشر.

أما معاوية فهو من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو من كتبة الوحي الذين ائتمنهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على كتابة الوحي، من يطعن في معاوية يطعن في الوحي؛ إذ أن معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- هو أحد كتبة الوحي الذين ائتمنهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على الوحي، وكذلك ائتمنهم عمر -رضي الله

---

[١] وردت في الحلقة الثانية.

عنه-، وبالتالي بعده عثمان -رضي الله عنه-، وثق به وجعله واليًا على الشام -رضي الله عنه وأرضاه-، وكفاك بتزكية عمر له وهو الملهَم، وهو الذي كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب)) [١]. محدثون أي ملهمون يجري الله سبحانه وتعالى على ألسنتهم وعلى أفئدتهم الحق. فعمر -رضي الله عنه- زكى معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه وأرضاه-.

وكذلك معاوية هو صهر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو خال المؤمنين، إذ أن أخته أم المؤمنين زوجة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فالقتال الذي دار بين الصحابة -رضوان الله عليهم- كالقتال الذي دار بين عائشة والزبير وطلحة وبين عليّ -رضي الله عنه وأرضاه ورضي الله عنهم جميعا-، وكذلك القتال الذي دار بين معاوية وعمرو بن العاص وغيرهم من الصحابة وبين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- إنما هو عن اجتهاد منهم -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وكما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث المتفق عليه: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)). فهم يدورون بين الأجر والأجرين.

نعم الحق عند ذلك كان مع علي -رضي الله عنه وأرضاه-، ونحن نقولها بملئ الفيه أن علي -رضي الله عنه- هو الذي كان على الحق يومئذ، ومن خالفه أخطأ، وهو من المخطئين المجتهدين، أما عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين -رضي الله عنها- والزبير -رضي الله عنه- وطلحة -رضي الله عنه- وهم جميعًا من المبشرين بالجنة، حصل ونشأ القتال آن ذاك عن سوء طوية من عبد الله بن سبأ اليهودي الذي دُس بين المسلمين وتظاهر بالإسلام ثم

---

[١] أخرجه الإمام مسلم.

عمل على النميمة والوشاية بين الجيشين، وذهب هو وعصابته المجرمة في التقتيل من هذا الجيش وهذا الجيش، جيش عائشة -رضي الله عنها- جيش الزبير جيش طلحة، وجيش علي -رضي الله عنه-، والأمر ذلك بُيت بليل حتى أصبح الجيشان على السيوف واحتكموا للسيوف واقتتلوا -عفا الله عنهم جميعا ورضي الله عنهم جميعا-.

هذه فتنة كما قال عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه وأرضاه ورحمه الله-: تلك فتنة عصم الله منها سيوفنا، فلنعصم منها ألسنتنا.

وأما معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- فهو ولي دم عثمان -رضي الله عنه-، عثمان قتل مظلوما، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء]. معاوية بن أبي سفيان وهو من بني أمية، وعثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- من بني أمية، كان أولى الناس به هو معاوية، وهو الذي كان يطالب بدم عثمان من قتلة عثمان الذين اجتمعوا على قتله يوم الدار، عليّ -رضي الله عنه- أرسل لمعاوية أن يدخل في الطاعة ويدخل في بيعة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- وبعد ذلك يقتص من قتلة عثمان، لأن قتلة عثمان كثر تمالؤوا على قتله -رضي الله عنه وأرضاه-، وكما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: لو أن أهل صنعاء تمالؤوا على قتل رجل لقتلتهم به.

فقتلة عثمان بن عفان الذي تمالؤوا عليه يوم الدار كثر، وهم متخللين في جيش علي -رضي الله عنه وأرضاه-، علي أمر معاوية أمرًا بأن يعزل نفسه من إمرة الشام أولًا ثم يبايع عليًّا ثانيا، ثم بعد ذلك يقتص من قتلة عثمان وينظر في تلك المظلمة وفي تلك الفتنة، فاجتهد معاوية وأبى تلك البيعة إلا بعد أن يقتص من قتلة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وحصل القتال بينهما في معركة صفين، وكان هذا القتال مما لم يشهد له نظير، حيث أنهم يتقاتلون ثم

يقول الأخ لأخيه من هذا المعسكر لهذا المعسكر انظرني أرتاح انظرني ارتاح، فيرتاحون قليلًا ثم يتقاتلون، وهذا قتال بين الإخوة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَاۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [التغابن]. فسمى الطائفتين من المؤمنين.

وكذلك في الحديث الحسن الذي مر معنا آنفا من الحديث الذي رواه الإمام أحمد، قال ﷺ: ((إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)).

فسمى الفئتين كلاهما من المسلمين، معسكر معاوية ومعسكر عليّ -رضي الله عنه وأرضاه-.

فهذا القتال حصل عن فتنة وعن اجتهاد بين الصحابة -رضوان الله عليهم وأرضاهم-، نحن نترضى عن الجميع -رضي الله عنهم-، وهم يدورون بين الأجر والأجرين، ولا نصنع كالرافضة الذين يطعنون في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، كما قال أبو زرعة الرازي -رحمه الله رحمة واسعة- أولئك الزنادقة أرادوا أن يطعنوا في كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فطعنوا في أصحابه الذين حملوا إلينا الكتاب والسنة، طعنوا في الشهود، يطعنون فيما شهدوا به وما نقلوه إلينا، وكما قيل إذا سقط الناقل سقط المنقول.

السؤال: ما هو الفرق بين المقلد والمتبع؟ وهل يجوز التقليد والاتباع في الأصول أو الأمور عقائدية؟

الجواب: الفرق بين المتبع وبين المقلد: أن المقلد يأخذ قول العالم دون معرفة دليله. وأما المتبع فيأخذ قول العالم مع معرفة دليله.

إذ أن أقوال العلماء يستدل لها ولا يستدل بها، فأقوال العلماء هي وسيلة لفهم ما استشكل من كلام الله وكلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، يقول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل]. فمفهوم المخالفة إن كنتم تعلمون فلا داعي لسؤال أهل الذكر.

إذن فكلام أهل العلم هو وسيلة لفهم ما استشكل من كلام الله وكلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبعد ذلك إذا عرفنا ذلك لا نقدم أقوال العلماء أبدًا على قول الله وقول رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا يقلد إلا بليد.

ونقل العلامة ابن القيم -رحمه الله- الإجماع على أن المقلد ليس بعالم، وأن المقلد ليس بمجتهد، وأن المقلد لا يحق له أن يفتي الناس. كما ذكر ذلك في كتابه إعلام الموقعين أو أعلام الموقعين عن رب العالمين.

إذن فالتقليد مذموم، اللهم إلا من لم يستطع ومن ليس له أهلية في معرفة الأدلة وفي التمييز بين الأدلة، فلا بأس أن يقلد من يثق في دينه وفي علمه من العلماء كالأئمة الأربعة -رحمهم الله رحمة واسعة-.

فالمقلد هو مقلد في كل شيء إلا في من يقلد فهو مجتهد، يجتهد أيقلد مالك أو يقلد الشافعي أو يقلد أبا حنيفة، أو يقلد أحمد -رحمهم الله رحمةً واسعة-، فهذا يُتجوّز له في التقليد، لكن لو بلغه نص من كتاب الله أو من كلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على خلاف المذهب، على خلاف الإمام الذي يقلده؛ فلا يصح له بعد ذلك أن يتبع ذلك الإمام ويدع قول الله وقول رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

قال العلامة الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله-: قال أبو حنيفة النعمان:

قالَ أبو حنيفةَ الإمامُ: ... لا ينبغي لمن لهُ إسلامُ

أخذًا بأقوالِيَ حتى تُعرضَ ... على الحديثِ والكتابِ المرتضى

ومالكٌ إمامُ دارِ الهجرةِ ... قالَ وقد أشارَ نحو الحُجرةِ:

كلُ كلامٍ منهُ ذو قبولِ ... ومنهُ مردودٌ سوى الرسولِ

والشافعيُ قالَ: إن رأيتُمُ ... قولي مخالفًا لما رَويتُمُ

منَ الحديثِ فاضربوا الجدارَ ... بقولي المخالفَ الأخبارَ

وأحمدٌ قالَ لهم: لا تكتبوا ... ما قُلتُهُ بل أصلُ ذاكَ فاطلبوا

دينكَ لا تُقلِّد الرِّجَالَا ... حتى ترى أولاهمُ مقالَا

السؤال: إذا كان الرجل يُكتب له النفاق أو الكفر فما ذنبه في ذلك، وكيف يُحاسب على شيء كُتب له؟

الجواب: مسألة القضاء والقدر هي بين ثلاثة طوائف: القدرية، والجبرية على النقيض من ذلك، وأهل السنة والجماعة وسط بينهما.

القدرية: يقولون اللا قدر، والأمر أُنُف. والإنسان مُخير لا مُسير، والله لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها.

والجبرية: على النقيض من ذلك، يقولون أن الإنسان مُسير لا مُخير، وهو كالريشة في مهب الريح.

وأما أهل السنة والجماعة: فوسط بين هؤلاء وبين هؤلاء، يقولون أن الإنسان مسير ومخير، الإنسان له مشيئة، لكن مشيئة الإنسان داخلة ومندرجة تحت علم ومشيئة الله سبحانه وتعالى. ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. [التكوير]

ثم نقول جوابًا على هذا المستشكل: لو أنك صنعت أمرًا من الأمور المخترعة المصنوعة، كسيارة أو نحو ذلك، ثم أخذت هذه السيارة وأضرمت فيها النار، لما لامك أحد، لأنك أنت الصانع لها، أنت الذي جعلتها وركبتها وجعلتها على هذه الصورة ثم أضرمت فيها النار، أنت لك المشيئة فيها، تفعل ما تريد -ولله المثل الأعلى-.

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق من عدم، وجعل لهم كل تلك النعم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل]. نعمة واحدة لا تحصوها، فكيف بسائر النعم؟ جعل له العين، والبصر، والسمع، واليد، واللسان، جعل له نعمة التلذذ، نعمة التذوق، نعمة الشعور، إلى غير ذلك من النعم الكثيرة التي لا يسعها هذا المقام.

بعد ذلك أحياه في هذه الحياة الدنيا، إن عمل الخيرات وامتثل لأمر الله وأمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يدخله الجنة برحمته تعالى، وليس بعمل ذلك العامل؛ لأن تلك الأعمال وتلك العبادات التي قام بها الإنسان في هذه الحياة إنما هي لو قوبلت بتلك النعم التي أنعمها الله سبحانه وتعالى عليه لرجحت النعم على تلك العبادات التي قام بها.

ذلك الرجل الذي حكى لنا قصته النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في الحديث الذي رواه الحاكم وفي إسناده مقال، أن رجلًا من بني إسرائيل عبد الله سبحانه وتعالى أربعمائة

سنة، بعد ذلك جاء في يوم القيامة، فقال الله سبحانه وتعالى: ((أدخلوا عبدي الجنة برحمتي)). فقال ذلك الرجل: بل بعملي.

استكثر عبادته أن عبد الله سبحانه وتعالى أربعمائة سنة. قال: بل بعملي.

قال الله تعالى [بما معناه]: ضعوا عبادته أربعمائة سنة في كفة في الميزان وفي الكفة الأخرى نعمة البصر فحسب، فرجحت بها نعمة البصر، وطاشت تلك العبادة. لمدة أربعمائة سنة تلك العبادة ما وفت نعمة البصر.

قال الله تعالى: ((أدخلوا عبدي النار)). فهو يساق إلى النار يقول: ربِّ برحمتك أدخلني الجنة... فقال الله تعالى: ((أدخلوا عبدي الجنة)) (١).

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ اللهُ تَعَالَى عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبَعِ، تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ، فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَ رُمَّانٍ يُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عز وجل عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ. قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عز وجل، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ. فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا

النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: ((لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله))، قالوا: ولا أنت؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه، وفضل)). الباء لها أكثر من خمسة عشر معنى في لغة العرب، الباء هنا المنفية، ليست هي باء السببية، نعم الرجل يدخل الجنة بعمله أي بسبب عمله، لكن لا يدخل الجنة بعوض عمله، يعني لا تكون الجنة في مقابل عمله بالعوض.

فإن العمل مقابله النعم التي أجراها الله عليه في هذه الدنيا، كما قال رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماء)). كما ذكر ذلك وروى ذلك الإمام الترمذي –رحمه الله تعالى–.

فهذه العبادات التي نقوم بها لو قوبلت بالنعم التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها علينا، لرجحت تلك النعم على هذه العبادات.

فبعد ذلك لو شاء الله أن يُدخل العابد الزاهد إلى نار جهنم لما كان ظالما سبحانه وتعالى، ولكن الله وعد أن يدخل العابد الزاهد المتقي إلى الجنة بفضله وبرحمته سبحانه وتعالى.

عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ. قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: رُدُّوهُ. فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ، وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَقَالَ اللهُ تعالى: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي". فَيُدْخِلُهُ اللهُ الْجَنَّةَ. قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ.

فبعد ذلك لو أدخل الله سبحانه وتعالى ذلك الرجل العاصي الفاسق الكافر الذي لم يعبد الله سبحانه وتعالى الذي أشرك بالله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من ذلك الله سبحانه وتعالى يتفضل عليه في هذه الحياة بمجمل النعم، لو أدخله الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى نار جهنم لم يكن الله سبحانه وتعالى ظالما له في ذلك؛ إذ أنه هو الذي خلقه من عدم، وهو الذي رزقه سبحانه وتعالى، ثم هذا الرجل لم يطع الله سبحانه وتعالى، ولم يمتثل لأوامر الله سبحانه وتعالى، وكفر بالله سبحانه وتعالى، ثم جراء ذلك يدخله الله سبحانه وتعالى لنار جهنم، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ظالما له عندئذ.

والله تبارك وتعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وجزاكم الله خيرا.

***

فهرس المحتويات